١٤٢

روايات أحلام

على بساط الدمع

jilas.com

روايات إحلام

liilas.com

على باب الدمع

هل يغشّ القلب أحياناً؟!... إذا كان الجواب لا، فهل يستطيع قلب أليدا أن يشرح لها لماذا يخفق لبن راولي رغم عداوته واتهاماته بينما لا يعبأ هذا القلب باخيه مايس راولي الذي يحاول جاهداً التقرّب منها؟...

قدّم لها مايس كل ما يمكن أن تحلم به فتاة، لكن قلب أليدا ظلّ ينتظر كلمة السر من بن... فحتام الانتظار؟...

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل. الإمارات ٦ د. مصر ٤ ج.
سوريا ٧٥ ل.س. قطر ١٠٠ ر. المغرب ١٥ د.
الأردن ١ د. البحرين ٦٠٠ ف. تونس ١.٥ د.
الكويت ٥٠٠ ف. السعودية ١٠ ر. عمان ٦٠٠ ب.

معتمد في مكتبات العيان
AL AYAN Bookshops

روايات أحلام

مجلة قصصية اسبوعية تصدر عن شركة دار الفراشة
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م

العنوان: لبنان - بيروت - طريق المطار - قرب جسر المطار
سنتر زعرور - الطابق الثالث
ص.ب: ١١/٨٢٥٤ - بيروت - لبنان
هاتف/ فاكس: ٨٤١٤٠٢ - ١ - ٩٦١

المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

جميع حقوق الطباعة والنشر والاقتباس
والتأليف محفوظة للشركة

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

تنفيذ وطباعة مؤسسة دلتا للطباعة والنشر
- حارة حريك - شارع الكنائس ٥٥٧٦٣٦/ ٠١ - خلوي ٢٨٢١٨٨/ ٠٣ -

١ - الموج الغادر

كانت الريح دوامة رهيبة انطلقت بجنون تدفع الموج المتكسر إلى الشاطىء بموجات متوحشة، والسماء ملبّدة بغيوم رمادية بلون الأردواز، وكانت أغصان النخيل المروحية تتلوى عند الشاطىء بمنة ويسرى في حركة لا تكاد تهدأ.

وقفت أليدا عند حافة الموج.. اليوم ليس يوماً مناسباً للسباحة. لكن إذا كانت تريد أن تسبح في المحيط للمرة الأخيرة قبل سفرها فالفرصة ما زالت سانحة لذلك، في الغد ستركب طائرة بالم بيتش - فلوريدا - وهي لا تريد التفكير في هذا الأمر.. الشيء الوحيد الذي تريده هو أن تتطهر في البحر، أن تغسل حزن الأيام القليلة الماضية.

كان من المستحيل الغطس في الأمواج الصاخبة.. أما ما بعد الحوض الذي تتكسر فيه الأمواج، فإن البحر يبدو أقل هيجاناً وقد تتمكن فيه من السباحة قبل أن يجرفها الموج إلى الشاطىء.. ضمت أليدا نفسها وهي تستقبل الريح بوجهها وخطت إلى البحر.. لا تكاد تحافظ على توازنها.

قبل أن تدرك ماذا يحدث، أطبقت عليها قوة مرعبة وشدتها إلى الأسفل.... أحست بالمياه المجنونة وكأنها تغلي من قوقها، قاومت الضغط الهائل بعناد وناضلت لتصل إلى سطح الماء وهي تشهق طلباً للهواء.. لم يكفها الوقت لتملأ رئتيها بالهواء قبل أن تضربها الموجة

liilas.com

التالية التي دفعتها نحو الشاطىء.. ثم سحبتها تحت الماء مجدداً.. هذه المرة كادت رئتا أليدا تنفجران قبل أن تبلغ سطح الماء ثانية. وأخيراً أدركت مرعوبة أنها أصبحت بعيدة جداً عن الشاطىء.

إنه تيار تحت الماء! أليدا كانت قد سمعت بكلمة تيار لكنها لم تختبره إلا اليوم.. عاهدت نفسها ألاّ تستسلم للذعر وأن تحاول تذكر ما يجب أن تفعل... كانت ما تزال تحاول إنقاذ نفسها حين سحبها الموج مجدداً إلى الأعماق.

كان الشاطىء مهجوراً باستثناء مركب صيد صغير. أدركت أليدا عندئذ أن مأزقها صعب للغاية إذ لا يوجد أحد ليساعدها.

حين بدأت أطرافها تتجمد من البرد ووهنت عزيمتها، سمعت نداءً خافتاً يقول: أصمدي!.. راحت تفتح عينيها وتغمضهما لتتخلص من المياه المالحة الحارقة، وعاد الأمل إليها من جديد حين لمحت القارب الصغير الذي شاهدته عند وصولها إلى الشاطىء يتخبط متقدماً نحوها فوق الموج.

امتدت يدان قويتان إليها سحبتاها إلى القارب ولفتاها ببطانية. أغمضت أليدا عينيها مطمئنة واستسلمت لإغماءة لم تفق منها إلا بعدما أوصلها منقذها إلى الشاطىء.

أدخلها منقذها إلى إحدى الكابينات على الشاطىء، ووضعها دونما عناية فوق مقعد طويل وقال ساخراً:

ـ في المرة القادمة التي تقررين فيها السباحة في أشد الأيام برداً وعصفاً، تأكدي من أن ترتدي لباساً يقيك جيداً من البرد.

نظر إلى ثوب سباحتها البيكيني وأردف:

ـ وربما يتوجب عليك أيضاً أن تضعي جناحين يساعدانك على العوم.

بدا هذا التصرف بالنسبة إليها مستغرباً، خاصة بعد أن كادت تغرق

في المحيط.. لكنها آثرت السكوت على الرد. أرخت رأسها إلى الوراء وأغمضت عينيها، أحست بوخز مؤلم ففتحت عينيها بذعر لترى أن منقذها كان يضع مطهراً على ذقنها المخدوش.

قال بلهجة حادة:

ـ كي لا يلتهب الجرح.

أتاها ببطانية جافة فالتفت بها، وراحت تسترق النظر إليه وهو جالس قبالتها يصب القهوة لنفسه.

كان طويلاً برونزي اللون، واضح أنه يتعرض للشمس باستمرار، عيناه كانتا تلمعان كسمرته بلون لازوردي برّاق.. لا.. بل بلون الزبرجد الأخضر المزرّق، أما أنفه فكان حاداً بارزاً بشكل لافت. لم تكن مطمئنة إليه، فقد جلس يحدق إليها بنظرات سخط من تحت خصلة شقراء لوحتها الشمس.

علت ابتسامة ناعمة شفتيها المشققتين من الملح، وقالت:

ـ شكراً لإنقاذك حياتي.. ما كان يجب أن أنزل إلى البحر اليوم.. لم أكن أعرف بوجود التيار.

ـ الأحمق فقط ينزل إلى البحر في يوم عاصف كهذا.. ألا تقدرون أنتم السواح عاقبة أفعالكم؟ احمدي الله أنني رأيتك صدفة وأنني أملك قارباً كنت أوقف على الرمال.. وإلا لما استطعت الوصول إليك في الوقت المناسب.

تحرك غضبها:

ـ اسمع! أنا ممتنة لك لإنقاذك حياتي.. لكنني لست معتادة على أن يوجه أحد الإهانة أو اللوم إليّ.. أعرف أنني ما كان يجب أن أنزل إلى البحر.. لكن ما حدث قد حدث وانتهى، فلننس الأمر إذاً.

رمت عنها البطانية محاولة الوقوف، وذهلت حين لم تقو ساقاها على حملها.. تمتم كلاماً غير مفهوم وقفز من مقعده ليمنع سقوطها:

Bilas.com

- كفاك مكابرة.. لست قوية بما يكفي لتستطيعي الذهاب إلى أي مكان.

أعادها إلى مقعدها، وسأل:

- ما اسمك؟ على أي حال.

همست بصوت يكاد لا يُسمع: أليدا برايس.

- وأنا بن راولي. أعيش في هذا الكابين.. وكثيراً ما أخاطر بحياتي لإنقاذ السواح المجانين من نزوات المحيط.. هذا عدا عن كوني رساماً.

نظر إليها وهي تتكمش في الوسائد الملونة البراقة، وأكمل:

- لا تقلقي.. لن أهاجمك.. ألديك من يمكن الاتصال به؟

رغم محاولتها الجادة، لم تستطع أليدا منع دموعها من التساقط:

أنا.. أنا..

أعطاها منديلاً:

- يا إلهي.. هلاّ توقفت عن البكاء.

مسحت أليدا الدموع عن خديها، لكنها ازدادت تدفقاً. أخيراً استسلمت لحزنها وبكت وكأن قلبها يكاد يتحطم. في هذه الأثناء كان بن يراقبها ويداه على خصره. حين استعادت سيطرتها على نفسها أخيراً، رفعت عينيها نحوه.. فتنهد وهز رأسه:

- هل بإمكانك إعطائي تفسيراً لما يجري؟ أعني..

صاحت تقاطعه:

- أتوقف عن ماذا؟ آسفة إذا كانت دموعي قد أزعجتك سيد راولي، لكن الواقع أن لا أقارب عندي لأتصل بهم.. والدي مات منذ أربعة أيام، لقد كان آخر أقاربي.. وما إن أتعافى سأترك هذا المكان على الفور.

اختفت تلك النظرة الاتهامية من عيني بن بفعل ردها القاطع، ولا

شك أنها استطاعت التأثير فيه.. فقال بصوت يكاد يختنق:

- آسف.. لم أكن أعرف ما حصل لك.

أغمضت أليدا عينيها في محاولة للتخفيف من توترها، وفكرت في جدوى إخباره قصتها بالتفصيل: كيف جاءت إلى بالم سبرنغ مع والدها الخبير المعروف بالأنتيكات، وكيف خططت لتساعده في جرد محتويات «كزانادو» وبيعها.. ذلك القصر الشهير في بالم بيتش المقرر إزالته لإقامة ناطحة سحاب مكانه.

كان والدها قد أعلن بحماس:

- سنكون عطلة حقيقية. ما إن ننتهي من العمل في «كزانادو» حتى نأخذ عطلة طويلة نقضيها في إحدى جزر «فلوريدا كيز» أو ربما في الباهاماس، فنحن نستحقها.

ما إن وصلا إلى الفندق حتى أصيب والدها بنوبة قلبية أودت بحياته، وكم كان صعباً عليها القيام بإجراءات الدفن.. وهي تدرك أن الأمر سيكون أكثر إيلاماً عندما تعود إلى شقتها في شيكاغو لتجد نفسها وحيدة.

أخيراً استسلمت أليدا للنوم بعد الإجهاد الذي تعرضت له. عندما استيقظت من غفوتها كان لون السماء قد تبدّل من الرمادي إلى الأزرق، حتى أنها كانت ترى النجوم بوضوح تام. غير أن بن لم يكن موجوداً بقربها. اتكأت على مرفقها وراحت تتفحص ما يحيط بها.

كانت الكابينة منزلاً صغيراً يقع عند طرف الشاطىء، تمر من خلفه الطريق الساحلية.. أما من الداخل فقد كانت النوافذ الواسعة تبرز منظراً شاملاً للمحيط، وحول النوافذ رُكّبت ستائر لماعة مزهّرة. قرب أحد الجدران وُضعت طاولة مرتفعة، وفي الجهة المقابلة لها كانت توجد مدفأة تجاورها صخرة مصنوعة من الصدف ذي اللون الأصفر.

رأت أليدا من خلال باب له قنطرة غرفة تستخدم لتناول الطعام مع

ibtesama.com

أنها لم تصمم لهذه الغاية، فيها طاولة واحدة عليها عدة زجاجات وأنابيب، لكن ما لفت نظرها وجود لوحات عدة لم يكتمل رسمها بعد بالإضافة إلى منحوتة خشبية كبيرة لم تكتمل هي الأخرى.

سمعت أليدا براداً يُفتح ويُغلق في المطبخ الصغير إلى يسارها.. وسرعان ما برز بن وقدم لها بعض السندويشات. كانت جدّ جائعة.. فالتهمت بنهم سندويشين قبل أن تعي أن بن يراقبها.. كان يميل فوق الطاولة وهو يضع إحدى قدميه على مقعد خشبي والأخرى على الأرض.

قالت بعد أن ضاقت ذرعاً بطريقة تفرسه فيها:

ـ لماذا تحدّق إليّ بهذه الطريقة؟

ـ أنا أتأملك فقط.. على أي حال، إن إنقاذي حياتك يعطيني الحق في أن أحدق إليك ساعة أشاء، وبالطريقة التي أريدها.. ثم انظري إلى نفسك، فمع أنك تبدين أفضل حالاً مما سبق، إلا أنك ما زلت شاحبة الوجه، وشعرك خشن الملمس وينقصه التصفيف، أنت لا تعجبينني.

قالت بلهجة ساخرة:

ـ لقد اكتفيت من انتقاداتك.. أرجوك، ساعدني للوصول إلى فندقي فتريح نفسك من عناء الاهتمام بي.

ـ لا.. لا ينبغي أن تكوني وحدك بعد أن كدت تغرقين.. يجب أن تبقي تحت عناية شخص ما.. ويبدو أن المهمة وقعت على عاتقي.

تصرف بن راولي أشعرها بالعجز والغيظ في آن معاً.. شدت قبضتيها بغضب.. واضح أن بن على حق.. فهي ليست قوية بما يكفي لتذهب وحدها إلى شقتها.

كان الملح قد جف على وجهها وجسدها، والتصق شعرها بفروة رأسها. كانت مترددة لا تدري ماذا تفعل ولا بد أن ارتباكها كان واضحاً لبن، فقد دخل مسرعاً إلى غرفة مجاورة.. وما لبثت أن سمعت بعدها

خرير المياه.

عاد بن متجهم الوجه يلف منشفة سميكة حول عنقه، تقدم نحوها دون أن ينبس ببنت شفة ورفعها فوق ذراعيه بخفة.

صاحت به وهي تضرب صدره بقبضتيها:

ـ أنزلني! ما الذي تفعله؟

ـ سأمتعك بدوش ساخن لطيف.. لقد اغتسلت وأنت نائمة.. وصدقيني.. هذا قد يشعرك براحة تامة.. توقفي عن الاحتجاج.

ـ لا يمكنك أن تحممني! لن أسمح لك بذلك! أنزلني!

ـ اهدأي.. لا أنوي أن أحممك مع أن الفكرة مغرية.. سأحملك فقط إلى الحمام. والآن كوني فتاة عاقلة، وتوقفي عن التلوي.

أدخلها إلى غرفة صغيرة تنعدم فيها الرؤية لكثافة البخار المتصاعد فيها، بالرغم من استيائها من تلك المعاملة التي لم تر فيها لباقة أحست أليدا بالهدوء والانتعاش تحت المياه الساخنة.. أبقت رأسها تحت الماء المتدفق لفترة طويلة ليزيل عن شعرها ما تعلق به من الملح. كان بن صادقاً في وعده، فقد تركها بسلام ما إن تأكد أنها قوية بما يكفي لتستطيع الاعتماد على نفسها.

لفت نفسها بمنشفة كبيرة ولفتها حولها، في هذه الأثناء عاد بن يحمل ثوباً حريرياً. لاحظ نظرتها المتسائلة لكنه لم يعطها تفسيراً لوجود الثوب الأنثوي وتركها وحدها ترتدي الفستان.

وقفت أمام المرآة تتأمل صورتها.. ما عدا الخدش في ذقنها، لم تكن تبدو سيئة الحال بالنسبة إلى تجربتها المرعبة.. كان شعرها الأسود يتأرجح فوق كتفيها، ركزت نظرها على وجهها البيضاوي ولامست الخدش في ذقنها بحذر، اطمأنت أنه سرعان ما سيشفى.. إنها محظوظة كونها ما تزال على قيد الحياة، ولم تتعرض سوى لإصابة طفيفة.

liilas.com

كان بن يجثو أمام النار، يضيف إليها الحطب. استدار ينظر إليها بإمعان وهز رأسه:

- تبدين أفضل حالاً.. أتشعرين أنك على ما يرام؟

غاصت أليدا في الأريكة الممتلئة وسائد، وأجابت:

- أجل.. شكراً لك.

فأشار بيده:

- بإمكانك النوم على السرير.. أو على الأريكة.. أيهما تفضلين؟

كان في صوت النار ما يشعرها بالأنس، فاختارت الأريكة..

أحضر لها بن بطانيات ووسادة، ثم قال:

- أراك في الصباح.

دخل إلى غرفة النوم وأقفل الباب وراءه.

استيقظت مرعوبة مطلقة عدة صرخات.. كانت تحلم أنها غير وحيدة على الشاطىء مع أبيها ترمي الحصى فوق صفحة ماء البحر الساكن. وهي تغطي عينيها من وهج الشمس المنعكس فوق الماء، لاحظت حركة خفيفة في الأفق البعيد.. فحدقت إليها جيداً لتتبين ما هي.. بالتدريج بدت أمامها موجة تتعاظم، وتزداد سرعتها وهي تتقدم نحوهما. كانت موجة كالبرج ولها قمة بيضاء تكبر كلما دنت منهما.. استدارت وأبيها ليهربا بعيداً عنها. لكن الأوان كان قد فات حيث قلبتهما الموجة العاتية رأساً على عقب.

أحست أليدا بيد أبيها تنفلت من يدها.. والتيار المجنون يجذبها إلى الأسفل.. لقد أصبحت تحت.. في أعماق المحيط، تكافح لتتنفس.. رئتاها امتلأتا بالماء.. كافحت بعناد لتطفو على سطح الماء، وحين وصلت كان المحيط قد عاد إلى هدوئه السابق، لم يبق أثر للموجة الغادرة.. ولوالدها كذلك.. ناديته بفزع، لم يُجب، بكت بحسرة ولم تستطع أن تعرف ما إذا كان طعم الملح في فمها مرده

الدموع أم ماء البحر.. وكان كابوساً مرعباً.

صيحتها أخرجت بن من غرفته مذهولاً. وفي لحظة ركع قربها يضمها بين ذراعيه، يمسّد شعرها بحنان غريب.

تعلقت أليدا به، لم تعد ترغب بعد حلمها الرهيب بأي شيء أقل من الاطمئنان لوجود كائن بشري بقربها.. كان الكابوس رهيباً، لكن العودة إلى الواقع وإدراكها أنها فقدت والدها إلى الأبد لم يكونا أقل رهبة منه.

بعد أن هدأت أليدا، أتاها بن ببطانية أخرى نقيها من برودة هواء الليل، وتركها وحدها تفكر باهتمامه المفاجىء بها. فمنذ أن انتشلها من المحيط لم تر فيه ذلك الجانب الحنون من شخصيته الذي ربما كان يخفيه وراء طبعه الحاد. وإذا كان الأمر كما تعتقد فلربما أصبحا صديقين.. أسعدتها الفكرة وسرعان ما نامت على إيقاعها.

تسللت شمس الصباح المبكرة عبر ستائر النافذة لتوقظ أليدا. كانت النار في المدفأة كومة من الرماد.. ولم يكن بن موجوداً.. وقفت بحذر تختبر قوتها وسُرّت لأنها تعافت مما أصابها، تقدمت نحو النافذة لتنظر إلى الشاطىء.

كانت الشمس تقبل الرمال الذهبية.. وطيور النورس تحلق على ارتفاع منخفض باحثة عن وجبتها الصباحية. وإيقاع الأمواج الهادىء كان ثابتاً بعكس ما حصل بالأمس تماماً.

كانت شاردة تتأمل المحيط والشاطىء حين سمعت صوت الباب. استدارت فرأت بن الذي نظر إليها نظرة تفحص، قبل أن يضع الحطب الذي يحمله قرب النار.

- تبدين على ما يرام هذا الصباح.

تذكرت الليلة السابقة:

- ليلة أمس.. تملكني كابوس..

liilas.com

عاد الجانب اللطيف من شخصيته للاختباء خلف تصرفات جافة، فهز رأسه دون أن يرد. . ثم فتش في الخزانة حتى وجد بنطلون جينز وكنزة، فرماهما إليها وهو يقول:

- جربي إن كانا يناسبانك.

خلعت ثوب النوم والروب في الحمام، وارتدت الجينز الذي كان واسعاً عند الخصر، لكنها وجدت دبوس أمان في أحد الأدراج وثبتت البنطلون جيداً. الكنزة كانت كبيرة كذلك. كان شعرها قد عاد إلى طبيعته الحريرية البرّاقة، فمشطته إلى أن أخذ يلمع وربطته إلى الخلف برباط مطاطي، ثم تفحصت صورتها في المرآة. اختفت الدوائر السوداء التي ظهرت بعد موت أبيها تحت عينيها. كانت بشرتها شفافة بلون العاج، وبدأ الخدش في ذقنها يتماثل للشفاء.

كان بن يقف عند النافذة حين عادت، فقال:

- تعالي. . فلنذهب لتناول الفطور.

- سأعود إلى الفندق لأجهز أمتعتي. . فلقد حجزت على متن إحدى الطائرات التي تقلع اليوم.

- أنت بحاجة لتأكلي شيئاً. . على أي حال ألا تريدين رؤية المنزل؟

- أي منزل؟

- أتعنين حقاً أنك لا تعرفين؟

- لا. . وهل يجب أن أعرف؟

- معظم الناس يعرفون. . هذا الكابين جزء من قصر شهير كانت تملكه المصلحة الاجتماعية الراحلة السيدة شيلا بندكت راولي. . هل يعطيك هذا فكرة عن أي قصر أتحدث؟

شهقت:

- زانادو؟ لم أكن على علم بذلك! لكن كيف. . لماذا. .

نظرت إلى الكابينة وكأنها تراها لأول مرة، ثم عادت بنظرها إلى بن الواقف وذراعاه متشابكتان لترى علامات البهجة تبرق في عينيه: أنا ابنها.

دار تفكير أليدا في دوائر مفرغة. . يا لقسوة القدر. . ! «زانادو» هو القصر الذي جاءت مع أبيها ليعملا فيه!

قالت بلهفة:

- بالطبع أحب أن أراه.

فتح بن باباً صغيراً في مؤخرة المنزل يكشف عن سلم مضاء في ممر معتم، وأشار بذراعه: تفضلي.

ترددت. . فقال:

- إنه نفق يوصل إلى القصر. . بناه جدي الأكبر كي لا يضطر ضيوفه إلى عبور الطريق الساحلية ليصلوا إلى المحيط.

صعدت السلم بحذر، كانت رائحة الرطوبة تملأ الأرجاء، وكانت أليدا تعرف أن القصر لا يأوي زواراً منذ عشر سنوات، أي منذ وفاة السيدة راولي. . وصيانته تكلف ثمناً باهظاً. . حتى أن أسرة راولي توقفت عن إقامة الحفلات الكبيرة التي كانت تقيمها في السابق.

ظلا في النفق دقائق حتى تمكنت من رؤية ضوء النهار في الجانب الآخر من النفق. وأوصلتهما الدرجات إلى بستان برتقال تابع لزانادو. فتوقفت أليدا بانتظار أن تألف عيناها النور الساطع بعد عتمة النفق.

كانت الشمس تنير أبراج القصر المرتفعة التي كانت تقف شامخة تطاول سماء استوائية زرقاء لا سحب فيها. . وكسر صوت بن الصمت.

- هذا كان قبة ملذات دستي نورغراين. . لقد جعل طراز الواجهة على شكل دير روسي قديم.

كانت أليدا تعرف أسطورة بناء «زانادو». فقد عمل دستي نور غراين جد السيدة شيلا بندكت راولي وتاجر القماش الأول، عمل طوال حياته ليجمع ثروة تكفي لبناء منزل ضخم وفخم وضع فيه مجموعته الفنية والأنتيكية التي لا تقدر بثمن. وفي سبيل ذلك، سافر إلى كل أنحاء العالم ليعود بأجمل اللوحات والرسومات، كانت فكرته هي أن يصبح قصره الشهير مكاناً يجذب إليه مشاهير المجتمع في العالم، والملوك والأمراء.. وقد أبدوا كلهم دهشتهم بزانادو.. مما أكسبه سمعة استحقها بجدارة كأفضل قصر مضياف في العالم.

لحقت أليدا بن عبر العشب نحو سياج من الشجيرات الصغيرة المقلمة، حيث توجد بركة بنافورة تحتل وسط الطريق الداخلية المستديرة، وحيث طيور الطواويس تختال بذيولها المزركشة وكأنها قوس قزح.

عبرت أليدا عن ذهولها لما ترى، ولكن بن كان في عجلة من أمره:

- دعينا نذهب الآن. بإمكانك العودة للتفرج فيما بعد.

قادها إلى باب جانبي مخفي عن الطريق بصف من العرائش الكثيفة.. ودخلا مطبخاً كبيراً.. كانت بداخله سيدة مبتسمة تعتمر قبعة تكاد تخفي وجهها استدارت لتحييه:

- سيد بن! لقد تأخرت على الفطور مجدداً.. أتود أن تأكل البيض؟ أم الحلوى فقط؟

عبث بن بشعرها القصير تحت القبعة، والتقط برتقالة من السلة.

- وفري اهتمامك لضيفتي.. أليدا پرايس هذه مارغريت مديرة منزلنا.

تركز نظر مديرة المنزل على أليدا لأول مرة:

- أوه.. أرجو عفوك! لم أرك عندما دخلت..

تقدمت مارغريت تأخذ يد أليدا:

- تعالي.. دعيني أقدم لك ما تأكلينه.

قالت أليدا:

- ربما بعض الفاكهة.

قال بن بحزم:

- لا.. بل حضري البيض واللحم والخبز المحمص، مارغريت.. فالآنسة پرايس كادت تغرق في البحر ليلة أمس، وأظنها بحاجة إلى تغذية. ستتناول الطعام في المقصورة.

حين أصبحا وحدهما، نفضت أليدا يد بن عن ذراعها:

- لا داعي لأن تتولى أمري.. فأنا لا أحتاج إلى فطور منوع.

- كلام هراء.. لن أقبل بأن يغمى عليك من الجوع.. على الأقل ليس وأنت في عهدتي.

لحقت به إلى رواق تحف به الأشجار في آخر المنزل الضخم. كانت التعريشات المزهرة تتسلق القناطر الحجرية، تشكل إطاراً للمنظر الخارجي. وكان الجو عابقاً بروائح الأزهار والورود.

شهقت أليدا من فتنة المنظر: يا للروعة!

قال بن بعينيه في الثناء ولم يعلق.. كان تحفظه واضحاً.

كانت مارغريت منهمكة بتحضير طاولة الفطور، وجلست أليدا في مقعد تمتع ناظريها بروعة المناظر حولها.. وتساءلت في سرها كيف يمكن لبن الفنان ألاّ يتأثر بسحر المكان وجاذبيته؟

عادت مارغريت لتقدم إليهما قطعاً من فاكهة ذهبية اللون في أطباق من الكريستال، فرفعت أليدا عينين متسائلتين إلى بن.. فقال وهو يعصر بعض الليمون الحامض على طبقه:

- هيا.. كليها.. أراهن أنها ستعجبك.

بحذر وضعت قطعة صغيرة من «الپاپايا» على لسانها. كان لها

liilas.com

طعم حلو لذيذ لا يشابهه طعم أي فاكهة ذاقتها من قبل.

تناول بن البيض واللحم بصمت، وهذا ما أراحها مؤقتاً من تعليقاته اللاذعة.. مع ذلك فهناك العديد من الأسئلة التي ما زالت تدور في ذهنها، فهي ترغب بشدة في رؤية مجموعة دستي نورغراين على الأقل قبل أن ترحل.

قال بن مقاطعاً أفكارها:

ـ ألا زلت مهتمة بتلك الجولة؟

ردت بحماسة: بكل تأكيد.

ـ عظيم، فلنبدأ بها.

سار بن مسرعاً، ولحقت به أليدا لتجد نفسها في قاعة رقص واسعة، كانت الأرضية تمتد أمامها في تصميم معقد من الزخرفة الخشبية المطعّمة المصقولة. فتح بن عدة أبواب في القاعة ليسمح لمزيد من النور بالدخول إليها. رفعت أليدا رأسها لترى أن السقف محفور بزخرفة رائعة.. كانت ثريات كرستالية تتدلى من سلاسل ذهبية ثقيلة. وأشعة الشمس تلمع فوق حواقي الكريستال المتدلي لتعكس أقواس قزح متراقصة على الجدران والسقف والأرض.

كانت أليدا تحب البقاء هناك للحظات لتتمتع بسحر ما يحيط بها في قاعة الرقص.. غير أن بن كان قد ألف هذه المناظر فكان يمر من أمامها دون اكتراث وهذا ما أشعر أليدا بشيء من الانزعاج قبل أن تسرع على مضض في أثره.

تسلقا سلماً ضخماً من حجر محفور مزخرف.. وقال بن:

ـ هذه حجارة مستوردة حجراً فحجر من قصر إسباني يعود تاريخه إلى العصور الوسطى.

وتوقفا في ردهة واسعة، حيث سمعت أليدا صوت رنين هاتف.. كان الصوت غير متوقع حتى أنها أجفلت.. وتوقف بن إلى أن انقطع

الرنين. لقد رد أحدهم على المكالمة وسمعت أليدا صوتاً منخفضاً في غرفة قريبة.

لكزها بن بمرفقه مشيراً إليها لتتابع سيرها، فسألت وقد ثار فضولها فجأة:

ـ هل يعيش أحد هنا؟

قال بن بجفاء: أخي فقط.

ثم أضاف على مضض:

ـ أترغبين في مقابلته أم لا؟

* * *

lilas.com

٢ ـ في معسكر الأعداء

نظرت أليدا بازدراء إلى كنزتها الواسعة والجينز المثبت بدبوس، وهزت رأسها مفكرة أنها غير مستعدة للقاء أي شخص كان بهذا الزي، فكيف إذا كان هذا الشخص من عائلة راولي المشهورة.

قال بن: تعالي إذن.

سار بن بخفة عبر باب مفتوح.. وكان الرجل الواقف يمسك الهاتف قائلاً:

ـ لكنك وعدتني.. إذا كنت لا تستطيع وضع بيان تفصيلي بهذه الأشياء في الوقت المناسب.. حسناً.. ألا يمكنك إرسال شخص آخر؟

استدار قليلاً، ولمح أليدا تمرّ بسرعة، فقام بحركة مزدوجة.. غطى الهاتف بيده وسأل بنفاد صبر: من أنت؟

أخافها سؤاله المفاجيء، أما بن فقد أطبق شفتيه ومشى باتجاه الباب.

قال أخوه:

ـ انتظر لحظة، أتسمح بندكت؟ أريد التحدث معك.

عاد إلى حديثه، وقال بن بصوت خافت:

ـ كان يجب أن أتوقع أنه سيرانا.. حسناً.. لا أنوي التورط بجدال طويل معه هذا الصباح. سأعرفك إليه كي تستطيعي التفاخر بأنك قابلت

مايس راولي، السيد المهيب، ثم نتابع طريقنا.

كانت أليدا قد سمعت باسم مايس راولي من كثرة تداوله في مقالات الفضائح المنشورة في الصحف.. وكثيراً ما كان يقترن بأسماء الفتيات الفاتنات المعروفات جيداً في المجتمع. ورغبت في لقائه بدافع الفضول لا أكثر، لكنها تعجبت من عدوانية بن تجاهه.. وسألت:

ـ ألست على وفاق مع أخيك؟

ـ في الواقع نحن لسنا شقيقين.. كان والده زوج أمي الأول.. لكن زوجها الثاني، والدي، تبناه ومنحه اسم عائلة راولي.. ولقد كره مايس هذا الأمر دوماً، بالإضافة إلى أن لكل منا وجهات نظر تختلف عمّا للآخر في العديد من الأمور.

وضع مايس راولي السماعة من يده بعنف ومرر أصابعه في شعره الأشقر الفضي، ثم استدار وتقدم نحوهما بخطوات ثابتة تعلو وجهه ابتسامة مهذبة.

قدمها بن إليه بصوت بالكاد يخفي كراهيته:

ـ أليدا پرايس.. مايس راولي.

تجاهله مايس ليسألها:

ـ ما الذي جاء بك إلى «زانادو» آنسة پرايس؟

ـ لقد أنقذني بن أمس من تيار جارف.. وعرض عليّ أن يريني القصر.

هز مايس رأسه.. فبخلاف شعر أخيه الأشقر كالذرة الملوحة بأشعة الشمس، كان شعره ذا لون فضي وبشرته شاحبة تلمع باللون البرونزي، وكأنه لون مكتسب من مصابيح شمسية لا من الشمس نفسها.. أما عيناه فحادتان برّاقتان كاللؤلؤ الموشى بالزئبق.. وقدّرت أليدا أنه في حوالى الخامسة والثلاثين من عمره ويكبر أخاه بسنوات

قليلة.

فجأة استدار مايس إلى بن قائلاً:

ـ هل تعلم بأن الرجل الذي كان سيجري الجردة لمحتويات القصر لن يأتي.. ولم يستطيعوا إيجاد بديل عنه.

ـ ما الذي حدث؟

أحست أليدا بانكماش في معدتها.. لقد أصبحت جدّ مهتمة بزانادو حتى أنها أبعدت عن تفكيرها حزنها على أبيها. غير أن سماع الحديث عنه بشكل عادي على لسان غريبين جعل الدموع تترقرق في عينيها، فاستدارت تتظاهر بتفحص آنية قرب النافذة.. وتابع الأخوان الحديث غير واعين لألمها.. بعد لحظة رفعت رأسها فإذا بمايس يقف إلى جانبها:

ـ أرى أنك معجبة بهذه الآنية.

ـ أجل.

أطرقت رأسها من جديد، فرأت قرب الآنية علبة سعوط موسيقية صغيرة مصنوعة من عظم القرون.. قدمها لها مايس:

ـ هاك.. يمكنك الإمساك بها، إنها جذابة جداً.. لكنها ليست نادرة.. ارفعي الغطاء فتعزف الموسيقى.

انساب منها لحن حزين أعاد الذكريات لأليدا:

ـ أعرف.. إنها مشابهة لعلبة أملكها منذ كنت صغيرة. أحضرها والدي لي من معرض في باريس..

ـ آه.. أنت إذن من محبي الأثريات؟

ـ تقريباً.

نظر مايس حوله مقطب الحاجبين:

ـ لا غرابة إذن في أن يعجبك المنزل. يبدو أن بن اختفى آنسة..؟

ـ برايس.. أليدا برايس.

ـ آه.. طبعاً.. برايس.. يبدو لي هذا الاسم مألوفاً.. في الواقع أن الرجل الذي كان سيأتي ليشرف على الجردة اسمه برايس.

ـ إنه أبي.

نظر إليها مايس باهتمام زائد..

ـ والدك؟ لقد قيل لي.. أرجو عفوك.. واسمحي لي أن أقدم تعازيّ الحارة لك.

ـ شكراً لك.. واعلم أنني مهتمة بالمنزل لهذا السبب بالذات. لقد كنت مساعدته.

ـ وهل أنت خبيرة في هذه الأمور؟

ـ لقد ساعدت والدي خلال عدة سنوات، وقبل ذلك تدربت في مؤسسة لايتر.

ـ رائع.. ربما تستطيعين مساعدتي إذن، أحتاج لمن يبدأ الجردة فوراً.. هل ترغبين في المهمة؟

اضطربت أفكار أليدا.. لقد ساعدت أباها بعمله هذا صحيح، لكن أيمكنها القيام بتلك المهمة المعقدة وحدها؟ قد تكون هذه فرصة مُتاحة لها للبقاء في القصر بدلاً من العودة إلى شيكاغو وذكرياتها الأليمة.. نظرت إلى الغرفة المزينة بذوق رفيع، بمحتوياتها التي لا تقدر بثمن، قيّمت فرصتها ثم قالت بسرعة قبل أن تغير رأيها:

ـ أجل.. متى تريدني أن أبدأ بالعمل؟

ابتسم مايس:

ـ هذا ما يعجبني.. الحماسة الحقيقية، بإمكانك البدء متى شئت. غداً ربما؟

ردت مبتسمة:

ـ سأبدأ العمل بعد الفطور سيد راولي.

ـ ناديني مايس.. قد تغدو المهمة أسهل لو انتقلت للسكن هنا

حيث يوجد الكثير من الغرف.. ولن يزعجك أحد.. فأنا أقضي أغلب أوقاتي في السفر، وبندكت يبقى وحده في الكابينة. مرّي بالمطبخ وقولي لمارغريت أن توضب لك غرفة بناء على طلبي.. فليس من المنطق أن تقيمي في غرفة فندق في حين يمكنك أن ترتاحي في «زانادو».

لمحت بن من طرف عينها عائداً، وقف بالباب وهزّ رأسه إشارة إلى عدم رضاه.. شاهده مايس فقال مبتهجاً:

ـ بن.. قبلت الآنسة پرايس أن تتولى جرد محتويات القصر، فهل تعدني بأن تفعل ما بوسعك لتسهيل مهمتها؟

هز بن رأسه دون أن يجيب.

رمى مايس معطفاً خفيفاً على ذراعه، والتقط حقيبة أوراقه، ثم قال:

ـ سأغيب يوماً أو اثنين.. بإمكانك الاتصال بي في المركز الرئيسي لمؤسسة كاونت للتطوير في نيويورك إذا أردتني.

التفت يمد يده إلى أليدا:

ـ فلنتصافح تأكيداً على اتفاقنا، سأراك حين أعود.

مدت أليدا يدها تصافحه، وجدت قبضته كبيرة، دافئة، ثابتة وودودة. ثم سار مبتعداً وهو يُصفر.

التفت بن إليها وقال بحدة: فلنذهب.

وبدأ يسير بسرعة لم تستطع أليدا أن تجاريه فيها.

نادته وهي تلهث وراءه:

ـ مهلاً.. ألن تريني ما تبقى من زانادو؟

استدار ينظر إليها ساخراً وتابع سيره. أدركته قرب المقصورة حيث شدت يده وسألته:

ـ ما الأمر بن؟ لماذا أنت غاضب؟

نظر إليها بعينين لامعتين من شدة الحنق وشقتاه مزمومتان فأعادت السؤال:

ـ هل فعلت شيئاً خاطئاً؟

كرر:

ـ شيئاً خاطئاً؟ لا.. ليس كثيراً.. لقد انحزت لتوك إلى معسكر الأعداء.. هذا كل شيء.

أدار ظهره لها وذهب.

وقفت حائرة لبرهة كانت كافية لتجمع أفكارها من جديد، ثم اتجهت إلى المطبخ لتتحدث مع مارغريت.. ما يهمها الآن أن حيرتها بشأن مستقبلها قد زالت.. على الأقل في الوقت الراهن.. ولا يتوجب عليها سوى إحضار أغراضها من الفندق.

استفاقت أليدا في الصباح الباكر على تغريد العصافير.. تسللت من السرير إلى النافذة، حيث أزاحت ستائر رقيقة ونظرت إلى المحيط.. كانت الكابينة مخفية عن الأنظار بعرائش عنب ممتدة.. لكنها استطاعت رؤية شخص يجمع الحطب عند الشاطىء في مكان بعيد، وعرفت أنه بن.

دخلت إلى غرفة الملابس وهي تدندن لحناً تحبه. نظرت في المرآة.. لم تعجبها ملابسها المعلقة هناك، فراحت تفتش بين الثياب حتى وجدت فستاناً شفافاً بلون الجاد الأخضر مع صندال رقيق ووشاح مرسوم أخضر ربطت به شعرها.

كانت مارغريت تعد لها مكانها على الطاولة الحديدية الزجاجية السطح حين وصلت أليدا لتتناول الفطور.. وقالت بإعجاب:

ـ آه.. كم تبدين جميلة اليوم.. لقد تناول السيد بن فطوره.. وطلب مني إخبارك أنه سيتفرغ للرسم هذا الصباح ويريد منك ألاّ تزعجيه.

هزت أليدا رأسها.. أثار هذا الكلام كبرياءها فهل يظن أنها ستسعى إليه بعدما حدث يوم أمس.. بعد أن أعلنها عدوة لسبب لا تعرفه.

كانت قد خططت للبدء في الجردة بتصنيف الخزف الموجود في غرفة الطعام.. بعد الفطور، أرشدتها مارغريت إلى الطريق المؤدي إلى قاعة الطعام الرئيسية الطويلة المفروشة بمائدة طعام رائعة.. وقالت لها:

- لدينا عدة مخازن.

وفتحت أحد الأبواب في الردهة الموصلة إلى المطبخ. دهشت أليدا لرؤية الرفوف الطويلة المليئة بالعديد من الأطباق والفناجين والصحون وأدوات الطعام.

- كما ترين، لدينا الكثير من النماذج الخزفية وجميعها فريدة من نوعها.

تناولت فنجان شاي بحذر عن أحد الرفوف ومسحت عنه الغبار. أدارته باتجاه النور كي ترى أليدا شفافيته:

- هذا هدية من السفير الياباني.. كان مسروراً جداً أثناء زيارته القصر حتى أنه أرسل للسيدة راولي طقماً مكوناً من خمسين قطعة من هذا البورسلان الرائع.

أخذت أليدا الفنجان من يد مارغريت، وأبدت إعجاباً حاراً بتصميمه وبلونه الزهري والأخضر.. قالت وهي تعيده إلى مكانه بحذر: إنه رائع.

فتحت مارغريت أبواباً عديدة وقالت:

- هناك المزيد من أطقم الخزف.. لذا ينتظرك عمل دؤوب.

فتشت في حقيبة أوراقها عن لوحة الكتابة الكرتونية، وعن نسخة من جردة سابقة، وقالت:

- حان وقت العمل.

- سأستدعيك إذن إلى الغداء.

مر الوقت بسرعة لم تشعر أليدا بها لولا أن عادت مارغريت باسمة تدعوها إلى الغداء.

كانت قد غطت الطاولة الكبيرة بمفرش دانتيل صغير ووضعت عليها صحوناً من البورسلان الياباني.. أما الغداء فلم يزد عن لمرة أقوكادو مع سلطة قريدس (روبيان).

قالت لها مارغريت:

- لن يشاركك السيد بن المائدة اليوم.

أعطى غياب بن أليدا فرصة للتفكير بتطور الأمور في اليومين الماضيين.. وتساءلت عن الوقت الذي سيلزمها لتقييم محتويات المنزل بأكملها.. بما أنها ستعمل بمفردها فذلك يتطلب منها وقتاً إضافياً لم تكن لتحتاجه لو أنها تعمل مع والدها.

فكرت أليدا أن الإقامة في زانادو لن تكون هادئة إذا لم يكن بن ودياً معها.. غير أنها ارتاحت لفكرة أن بن يمضي غالبية أوقاته وحيداً في الكابينة.. وتساءلت ما إذا كان الثلاثة سيجلسون إلى المائدة نفسها بعد عودة مايس، إنها تفضل ألاّ يجتمعوا حول مائدة واحدة نظراً للتوتر السائد بينه وبين أخيه.

أنهت أليدا غداءها بسرعة ثم قامت بجولة في المنزل الرحب أوصلتها إلى المقصورة.. ثم قررت أن تخرج في نزهة قصيرة على الشاطىء قبل معاودة عملها.

تجنبت النفق.. فاستخدامه يعني إزعاج بن.. وبدلاً من ذلك، سارت عبر ممر ضيق قادها إلى الشاطىء.

كان المحيط في هذا اليوم يظهر لها وجهاً آخر من وجوهه المتعددة فالمياه ترتفع وتهبط ببطء في موجات متتابعة الواحدة إثر الأخرى

لتتكسر بنعومة فوق الشاطىء.

تلاعب النسيم المنعش القادم من الشرق بخصلات شعرها بيد أن تفكيرها بعملها كان يسرق منها فرحة التمتع بنزهتها على الشاطىء. وما إن استدارت عائدة إلى المنزل حتى فوجئت بسماع ضحكة أنثوية قادمة من خلف أشجار النخيل المروحي، الممتد على طول الجدار الواقي من الريح قرب الكابينة.

تساءلت عن هوية الدخيلة، ثم ألقت نظرة خاطفة إلى ما وراء حافة الحاجز الشجري.. فأدهشها أن ترى شابة تعانق بن.

احمرت أليدا خجلاً.. واستدارت لتنسحب.. ولكن كتفها اصطدم بغصن نخلة فأحدث صوتاً جعل الاثنين ينتبهان إلى وجودها.

لحقها بن بخطوتين سريعتين.. ولف يده حول ذراعها، ثم جذبها قريباً من الجدار الواقي.. وهتف بها:

- مهلك لحظة.

قالت بتلعثم:

- آسفة للتطفل.. لم أكن أتوقع..

راقب بن ارتباكها الذي أرضاه على ما يبدو، ثم قال مقطباً حاجبيه:

- أنا واثق أنك لم تتوقعي ذلك.. على أي حال، وبما أنك هنا، دعيني أعرّفك بتايثي.. تايثي أوبيرت كاولي.. هذه أليدا.

كانت تايثي واحدة من النساء الأكثر جاذبية اللواتي شاهدتهن أليدا في حياتها. لفت نظرها شعرها الأحمر البني الطويل الملوح بأشعة الشمس، مع أن لونه لم يكن طبيعياً وملابسها كانت تنم عن ذوق رفيع وأناقة كاملة، أما عيناها الخضراوان ففيهما وميض يضفي على وجهها الأسمر سحراً أخاذاً، ولولا فورهما لكانتا أكثر جمالاً.

رمقتها صاحبة تلك العينين بنظرات عدوانية من رأسها حتى

أخمص قدميها، نظرات إن دلت على شيء فعلى أنها لا قيمة لها بنظرها. كسر بن الصمت حين قال بلهجة لم تخف كراهيته:

- أليدا تعيش الآن في «زانادو» تساعد مايس على تقييم محتويات المنزل.

تناءبت تايثي: إنه لأمر مثير.

تراجعت أليدا خطوة وقالت بصوت منخفض:

- هلاّ عذرتماني.. فلديّ عمل أقوم به.

رفعت تايثي يدها محيّية بحركة تفتقر إلى التهذيب دلالة على عدم اكتراثها بها.. وانصرفت أليدا مسرعة نحو المنزل.

لفاؤها بين وتايثي تركها حزينة جداً وجعل من الصعب عليها التركيز في عملها. واساقت تقارن نفسها بها.. كان من السهل أن تدرك أنهما من عالمين مختلفين.. فتايثي إنسانة مادية تعتقد أن المال يصنع كل شيء.. إنها فتاة لا تفكر سوى بقضاء يومها تتنعم بأشعة الشمس، وحضور حفلات الأغنياء والمشاهير ليلاً.. أما بن فيبدو شاباً غبياً رغم أنه غني، وأخلاقه سيئة..

صاحت توبخ نفسها: توقفي عن هذا! ثم تنهدت بعد أن قررت التوقف عن العمل اليوم.. وبدا لها أنه وقت مناسب للبدء في استكشاف الأراضي التابعة للقصر.. «زانادو» أملاك تحتوي على خمسة عشر فداناً، هي تعرف من قراءاتها أن العناية بالأرض المحيطة بالقصر لا تقل أبداً عن العناية به.

خرجت عبر باب جانبي صغير لتجد نفسها في متحف في الهواء الطلق في مركز الصدارة فيه عدة منحوتات حديثة من مختلف الأحجام والأشكال.. تجاوزته لتجد نفسها تسير عبر مشتل أزهار مخفي تحيط به أشجار النخيل الخضراء.

سارت أليدا في ممر حجري بارد ما بين شجرتي تين بنغالي

متشابكتين، ووصلت إلى مرج أخضر يحده من الجانبين نخيل ملكي . . يتوج المرج بركة سباحة مرصوفة ببلاط متعدد الألوان.

وقفت تتأمل المنظر ويدها تحمي عينيها من حدة شمس المغيب. لمحت شخصاً يعتني بمشتل من ورود «البيتونيا» البيضاء . . رأت خلفه سياجاً مرتفعاً قدرت أنه ملعب للتنس.

رآها الرجل الصغير الجسم فبادرها قائلاً:

- مساء الخير . أنت الآنسة پرايس إن لم أكن مخطئاً . . أنا كالب ماكنلي، زوج مارغريت.

ارتاحت أليدا على الفور لهذا الرجل غير أنها دهشت لكون هذا الرجل الصغير الجسم زوجاً لمارغريت السمينة.

قالت له:

- كنت أتعرف إلى الحديقة.

- آه . . إنها جميلة . . أليست كذلك؟ لكن يا للأسف . . فحين يبدأون ببناء المجمع السياحي سيزول هذا الجمال كله ليقام مكانه مرآب للسيارات.

ارتعبت أليدا:

- أوه . . لا! بالتأكيد لن يسمح أحد بذلك! كل هذا الجمال . .

وخانها صوتها وهي تنظر إلى الواحة الخضراء . .

هز كالب رأسه:

- أجل . . أخشى أن يكون الأمر كذلك . . ما إن يتم تقييم الأثريات وتصنيفها ونقلها . . سيتحرك البولدوزر ليزيل بدقائق ما تطلب سنوات عديدة لإنشائه.

سارا جنباً إلى جنب يرشدها كالب إلى نباتات استوائية غير مألوفة . . أخيراً سألته أليدا عن السنوات التي عاشها في زانادو . . فرد متفاخراً:

- منذ خمس وثلاثين سنة، ومارغريت كذلك. نحن نعيش هنا بشكل دائم . . فيما مضى كانت السيدة راولي تستقبل العديد من الضيوف في موسم السياحة، وكنا نضطر لاستخدام عمال كثر. أما الآن فلا يوجد سواي ومساعد أطلبه في بعض الأوقات.

أشار إلى مشتل فارغ للزهور:

- كنا نبدّل الأزهار كل أسبوعين بناء لرغبة السيدة راولي بالتجديد. حمداً لله أنها ماتت قبل أن ترى المصير الذي آل إليه زانادو.

ألحّ كالب عليها لتنضم إليه وزوجته على العشاء في شقتهما الجميلة خلف المطبخ الرئيسي حيث تناولوا السمك المشوي. شربوا بعدها القهوة في غرفة جلوس صغيرة، وراحا يقصان عليها حكايات المشاهير الذين زاروا القصر. وهي تصغي باهتمام بالغ، أحست أليدا بحنين إلى أيام مضت وتمنت لو أنها شاهدت «زانادو» في ذلك الوقت.

عادت أليدا إلى غرفتها تراودها رغبة ملحة في السباحة . . ارتدت البيكيني ولفت نفسها بروب أبيض ثم اتجهت إلى بركة السباحة.

كان القمر قد لامس البركة بشعاع فضي جعل ماءها يأسر النجمات المتلألئة فوقها ويحتفظ بها فوق سطحه الساكن . . ارتجفت أليدا من الإحساس الذي تركه الروب وهو ينسدل عند قدميها . . ثم رفعت ذراعيها فوق رأسها وغطست . . سبحت إلى الجهة الأخرى من البركة، لكنها ارتعبت وهي عائدة لسماعها صوتاً بقربها. تجمّدت في مكانها لا تكاد قدماها تلامسان أرض البركة.

إنه بن دون ريب. سباحته البطيئة المتّزنة أوصلته إلى آخر البركة، ورجع بسهولة وخبرة عالية إليها، قالت:

- لقد أخفتني.

قال ساخراً:

- أوه؟ أردت فقط أن أرى ما إذا كنت تجيدين السباحة حقاً.

كرهت سخريته:

- بن.. لماذا لا تدعني وشأني؟ واضح أننا لا نتفق.. وأنني لا أعجبك.. فالأفضل لكلينا أن نجتنب بعضنا البعض.

اشتعلت عيناه في وجهه وكأنها نيران مُتقدة، اقترب منها قائلاً:

- بالعكس.. أليدا برايس.. أنت تعجبينني جداً.

ردت بلؤم:

- لديك طرق غريبة في إظهار إعجابك، ولقد بدا مؤكداً بعد ظهر اليوم أن إعجابك لا حدود له.

- سأظهر لك ما يعجبني.!

وشدها إليه بحركة خاطفة. أرادت أن تنسحب لكنها لسبب ما لم تفعل، بل وجدت نفسها تستجيب له بحرارة لم تشعر بمثلها نحو أحد من قبل.

كانت تلهث بين يديه مقطوعة الأنفاس حين تركها، فتمايلت مبتعدة. غاصت عميقاً في الماء، ثم سبحت بقوة نحو السلم في نهاية البركة.

لكن بن وصل إلى السلم قبلها، ووقف مغموراً بالمياه حتى خصره ينظر إليها بنصف ابتسامة مرحة.. ثم علق:

- تبدين جميلة جداً وأشعة القمر تتسلل من بين خصلات شعرك.

مد يده إلى خصلات شعرها المبللة يعبث بها.. أحست أليدا بوجوده الرجولي القوي، لكنها تمالكت نفسها ونظرت إليه بحدة وهي تدفع يده عنها، ثم تسلقت السلم إلى حافة البركة.. وبحركة سريعة انحنت تلتقط الروب وتلف جسمها به، ثم جرت بصمت فوق عشب المرج لتهرب من بن ومن مخاوفها التي لا تجد تفسيراً لها. نظرت إلى

الخلف نظرة خاطفة فوجدته واقفاً قرب البركة، يحدق إليها وذراعاه ممسكتان بالسياج، وظنت أنها رأت لمعان أسنانه البيضاء وهو يبتسم!

* * *

٣ ـ خطوة واحدة تكفي

قاطع رنين جرس الهاتف الصاخب أليدا وهي تفتش منضدة مايس في المكتب الصغير. وجدت الأقلام التي كانت تفتش عنها، ورفعت سماعة الهاتف.

كان الصوت من الجهة الأخرى حاداً ومتسائلاً:

ـ دعيني أكلم مايس.

انزعجت أليدا من اللهجة القليلة اللياقة.. وردت:

ـ إنه ليس هنا الآن.. هل هناك رسالة له؟

فجأة علت من السماعة صرخة بصوت أجش جعل أليدا تبعدها عن أذنها:

ـ لا كوكو، لا.. هذه موزتك.

ارتبكت أليدا:

ـ أرجو عفوك!

قال الصوت:

ـ قولي لمايس أن يتصل بي غداً.

وصفق المتكلم السماعة بشدة.

صاحت أليدا عالياً: يا للسماء!

جمعت أوراقها، ثم أدركت أنها لا تعرف من هي المتصلة فهي لم تترك اسمها. الدليل الوحيد على هويتها أن معها من يسمى «كوكو».

حسناً، سنخبر مايس بما حصل، فلربما عرف من تكون.

كانت أليدا تعمل في آخر خزانة في غرفة الطعام، تسجل الأدوات الكريستالية.. منغمسة جداً بعملها بحيث قفزت مجفلة حين سمعت وقع خطوات خلفها.

ـ هل تتمتعين بعملك؟

رفعت أليدا رأسها لترى مايس راولي.. كان يرتدي بنطلوناً بلون أزرق فاتح وقميص ناعم أبيض قصير الأكمام مفتوح عند العنق، وتعابير وجهه مهتمة.

قالت: أوه.. أجل..

ـ جئت لتوي من المطار، وأردت أن أذكرك بأن لا تنسي القيام بجردة الخزف والكريستال على متن اليخت.. هل ذكرت مارغريت لك هذا؟

ـ لا.. على الأرجح قد نسيت.. هل يرسو اليخت في مكان قريب؟

ـ في مينائنا داخل البحيرة.. سأخذك كالب إلى هناك.

ـ جيد.. سأسأله هذا. هل هناك شيء آخر؟

ـ ليس في بالي شيء الآن.. أظنك شاهدت بقية المنزل؟

هزت رأسها:

ـ لقد رأيت الحدائق، ولم أر غرف المنزل كلها.

قطّب مايس:

ـ لا يجب أن تعملي جاهدة هكذا.. وبما أنك لم ترَي المنزل بعد.. فجولة فيه ضرورية بكل تأكيد.. هل لديك وقت الآن؟

فكرت أليدا قليلاً وقالت:

ـ لا بأس بفترة من الراحة.

مد يده يساعدها لتقف: تعالي.

نزلا الدرج، وهو يقول لها:

- فلنبدأ بالجناح الشمالي.. إنه مقفل منذ سنوات عديدة.

سارا من غرفة إلى غرفة، يدلها على كل ما هو ثمين في كل منها.. قالت أليدا بعد أن توقفا أخيراً:

- زانادو هي كقصر خرافي انقلب إلى حقيقة.

- دستي نورغراين كان رجلاً ذكياً.. كان يعلم بالضبط التأثير الذي يريده، وخطط لتركيز كل شيء من مجموعته كما ترينها في المنزل.. بالطبع بعض الأشياء كحديقة المنحوتات مثلاً أضافتها أمي.. لكنها لم تغير أبداً أي شيء في المنزل. كل شيء هو كما تركه دستي نورغراين.

قادها صعوداً إلى غرفة مراقبة تحت أحد الأبراج الرفيعة.. من هذه النقطة المميزة، كانت السيارات تبدو وكأنها لعب صغيرة بحجم علبة كبريت.. إلى البعيد نحو الشرق، شريط رفيع من الرمال العنبرية اللون تحيط بالبحر.

نقلت أليدا بصرها فوق حدائق «زانادو».. من موقعها رأت كل شيء: امتداد واسع من الألوان الزرقاء والذهبية والخضراء، من البحيرة حتى المحيط. وإذا كان ما قاله كالب صحيحاً، فسرعان ما سيختفي هذا المنظر من الوجود.

تمتمت بصوت منخفض: أمر محزن..

صحح مايس لها وهو ينظر إليها:

- بل إنه جميل.

قالت تفسر قولها:

- إنه محزن لأنه جميل. لا أصدق أن هذا المنزل الجميل والحدائق سوف تُدمّر.

- المنزل قديم الطراز.. التمديدات الصحية فيه رديئة جداً وشبكة الأسلاك الكهربائية تحمل خطر الحريق.. كما هو الآن، قلة جداً من

الناس تستطيع التمتع بمناظره.. لكن حين يقام مجمع سياحي مكانه، كل من سيعيش فيه سيتمكن من رؤية المنظر الذي ترينه الآن.. فهل هذا أمر سيء؟

- لن يروا ما أراه الآن.. سينظرون إلى الغرب ليروا باحة وقوف السيارات المرصوفة بالإسفلت.. وهذه ليست فكرة جيدة عن الجمال.

- إذن أنت من المنتقدين؟

- لا أظن أن من حقي الانتقاد.. فأنا موظفة لديك.

- موظفة أم لا، لك الحق في إبداء رأيك.. واضح أنك فتاة تتشبثين برأيك.. وجميلة جداً كذلك.

تقدم منها فأحست بأنفاسه فوق شعرها.. لم تثق بنفسها أن ترفع رأسها لتنظر إليه، لكنه رفع لها رأسها إلى أن نظرت إلى عينيه الرماديتين الشفافتين، اللتين ينعكس فيهما لون البحر الممتد في الأسفل.

مد يده ببطء يمرر أصابعه بخفة، من أعلى خدها حتى أسفل فكها، يحرر وهو يفعل، خصلة شعر من تحت منديل يربط شعرها..

قال بصوت يكاد يكون همساً:

- هذا أفضل بكثير.

مال نحوها ليلفها بذراعيه.. وقبل أن تعرف ماذا يحدث كان يحتضنها في ذراعيه القويتين.. وفكرت أليدا دون إرادة منها بالخشونة التي رافقت عناق بن لها في بركة السباحة.. وارتسمت صورة خلف جفنيها المغمضين: بن إلى جانبها في البركة، والنار الزرقاء في أعماق عينيه..

صاحت: توقف!

وانتزعت نفسها من ذراعي مايس.. واستدارت مجدداً إلى النافذة

تتطلع إلى أراضي زانادو . . كانت ترتجف، لكن ليس بسبب تأثير عناق مايس فيها . . لكنه أساء فهم سخطها :

ـ لقد تشوقت لعناقك منذ رأيتك تتسللين قرب الباب وأنت في بنطلون الجينز الواسع .

كلماته أعادتها إلى الواقع وأدهشتها بحيث أنها استدارت تحدق به، فأكمل :

ـ لا تظهري مثل هذا الذهول . . هل ظننتِ أنني كنت أعمى عن جمالك ذلك اليوم؟

ثم عادت إلى ذراعيه مجدداً . وحاولت أن تنسى نفسها في أحضانه، علّها تمحو صورة بن من مخيلتها . . فهي لا تستطيع أن تتخيل السبب الذي يجعلها تفكر ببن . . لا يبدو عليه أنه معجب بها ولقد بذل جهده كي يكون لطيفاً معها، مع ذلك فهو على ما يبدو يحتل أفكارها .

ضمها مايس إليه بنعومة وحرارة إلى أن أحست بالدوار . لكن في قلبها لم يكن هناك خفقان مستجيب ولا نبض متسارع . . أخيراً سحبت نفسها منه بلطف، وقالت له إنها يجب أن تعود إلى عملها . تقبل انسحابها بابتسامة ضعيفة لكنه لم يعترض، وأحست بعينيه تراقبانها وهي تنزل السلم اللولبي لوحدها .

كان وقت الفطور في الصباح التالي حين شاهدت مايس مجدداً، ولدهشتها كان بن هناك أيضاً . . جلس الثلاثة معاً، وأخذت أليدا دونما إرادة منها تقارن ما بين الاثنين . . أبقت رموشها منخفضة، لا تريد أن تكشف عن تفرسها السري .

أمضى بن معظم الوجبة يحدق بمايس . . ورأت أليدا الجو المحيط بها يزداد توتراً . . وظنت مخطئة أن الجو سيتحسن إذا جرى حديث بين الأخوين .

أخيراً سأل بن :

ـ رحلتك إلى . . نيويورك . . هل كانت ناجحة؟

رد مايس بلهجة غير مكترثة :

ـ قد أقول هذا . .

ـ إذن فالبيع تقرر؟ مؤسسة كاونت للإعمار ستشتري زانادو حتماً؟

أجفلت أليدا . . كانت تظن بيع ودمار القصر في النهاية مؤكد . . أو على الأقل هذا ما ألمحت له الصحف . . ورد مايس :

ـ لقد ألزمت مؤسسة كاونت نفسها . . ونحن الآن ننتظر انتهاء كتابة الاتفاقية، ويصبح الأمر مسألة توقيع .

ـ لكن لا يزال هناك وقت؟

نظر مايس إلى بن بنفاذ صبر :

ـ بن . . لقد مررنا بهذا من قبل . لقد انتهى أمر البيع ولا نستطيع الآن إيقافه . دعنا لا نتكلم بهذا بعد الآن . . ثم أنا لدي عمل أقوم به . . سأكون في مكتبي .

دفع كرسيه إلى الوراء ووقف :

ـ أليدا، تعالي لرؤيتي فيما بعد . . لدي بعض التفاصيل أريد مناقشتها معك .

ثم سار بسرعة إلى داخل المنزل بخطوات متأنقة .

مال بن إلى الوراء في كرسيه مقطباً . . وعلقت أليدا :

ـ كنت أعتقد أن زوال زانادو مؤكد .

ـ هذا ما يريد مايس أن يظنه الناس . . أخي مصمم على الخلاص من هذا الحمل الكبير .

ـ يقول إن التمديدات الصحية والأسلاك الكهربائية مضى عليها الزمن .

ـ هذا صحيح . . لكن بالإمكان إصلاحها . . فلنواجه الأمر . .

مايس يبيع جدته ليكسب دولاراً.. فهو لا يهتم أبداً بجمال وتقاليد زانادو.

سألت متحدية: وأنت تهتم؟

ركز عينيه الزرقاوين عليها:

- أجل.. أهتم. كنت أحارب لإنقاذ المكان.. إنه القصر الوحيد والفريد من نوعه في العالم كله.. أريد أن أراه يتحول إلى متحف ولا أستطيع تحمل رؤيته يتدمر.

- وهل هناك فرصة حقيقية لأن يتحول زانادو إلى متحف؟ أم أن هذه مجرد أمنية؟

- كنت أتفاوض مع سلطات الولاية آملاً أن يجدوا المال الكافي لشراء زانادو.. لكن مايس هو المشرف الرسمي على أملاك والدتنا، ويرفض تخفيض سعره أو إعطاء الولاية فرصة وقت لجمع المال. ولسوء الحظ تستطيع مؤسسة كاونت دفع المال فوراً.

تذكرت أليدا ثراء عائلة راولي:

- وهل المال مهم إلى هذه الدرجة؟

- بإمكاننا الاستمرار في المحافظة على القصر كما كنا في الماضي.. وهذا على الأقل ما نتفق عليه.. أما بالنسبة لمعيشتنا فهي مؤمنة بمال الثمان في المصرف.. ثمن بيع الأملاك سيقسم بيني وبين مايس.. لكنني سأهب حصتي للأعمال الخيرية، بينما سيستثمر مايس حصته. مع ذلك فليس المال هو دافعه.. فهو يرغب في مجد عقد صفقة مع أضخم شركة بناء وإنماء في العالم.. لكنني سأكون ملعوناً لو جلست متفرجاً على دمار زانادو لمجرد دفع غرور أخي إلى الأعلى!

فجأة رأت أليدا بن في ضوء جديد.. لماذا لم تعرف أن لامبالاته الظاهرة نحو جمال زانادو ما هو إلا مجرد درع يحمي فيه نفسه؟ أنه يتألم في داخله وهو يعرف أن أملاكه محكوم عليها بالدمار.. متهورة،

مدت يدها تغطي يده.

- بن.. أعرف ما تشعر به. لقد شعرت بنفس الشيء بالأمس حين كنت أقف في البرج. استطعت أن أرى كل شيء يمتد ما بين البحيرة والبحر، وحزنت على اليوم الذي لن يعود فيه لزانادو وجود.

بنفاد صبر دفع يدها عنه.

- كيف يمكن أن تقولي هذا أليدا؟ أنت تساعدينه.. لو لم تكوني هنا، لحدث تأخير.. لن يستطيع مايس أن يبيع المنزل قبل إفراغ محتوياته.. كل يوم تعملين فيه هنا يقرّب البولدوزر من القصر.

رمى فوطة الطعام ووقف.. دون أن ينظر إليها ابتعد.

اعترفت أليدا أن ما قاله بن صحيح دون شك.. لقد رأت في هذه الوظيفة فرصة ومهرباً.. لكنها في ذلك الوقت لم تكن تفهم الموقف.. الآن وقد فهمته، أيمكنها بكل راحة ضمير أن تبقى؟ لكن.. إلى أين تذهب؟

لم تكن تعرف الكثير عن وضع والدها المالي.. لكن اتصالاً مع محاميه بعد وفاته، أبلغها أن إرثها قليل جداً.. فوالدها كان لا يملك الكثير مما له قيمة، ما عدا بضعة أنتيكات كان يمتلكها للاقتناء فقط، وليس للاستثمار.. وهو كذلك لم يمتلك يوماً سيارة.. ولم يربط نفسه بمنزل، بل كان يفضل شقة صغيرة له ولابنته.. لذا كانت أليدا تعرف أن عليها أن تعمل، فهي غير قادرة مالياً، ولن تستقيل.. لا.. في الوقت الحاضر على الأقل، سوف تماطل الوقت.

متنهدة، وقد زالت شهيتها للطعام، تركت فطورها الذي لم ينته وباشرت عملها على مضض.. وكان الوقت منتصف الصباح حين تذكرت أن مايس طلب منها المجيء إلى مكتبه.

وقفت من مكانها على الأرض، تنفض الغبار عن بنطلونها القصير.. كانت تحس بمشاعر مختلطة حول مواجهتها لمايس وهي

تعرف الآن المزيد عن خلافه مع بن. وتساءلت عما إذا كان اتفاق البيع لا يمكن الرجوع عنه حقاً، وقررت أن تعرف.

كان مايس يجلس وراء منضدته، مسترخياً في مقعده وظهره إلى الباب، يتحدث في الهاتف.. عند رؤيتها أنه مشغول، وقفت في الخارج، لتتفحص تمثال أسد من الجاد على طاولة قريبة.. مثلها مثل العديد من المجموعات في زانادو، كانت مجموعة الجاد لا تقدر بثمن.

سمعت صوت مايس وهو يقول في الهاتف ساخطاً:

- التزلج؟ سايلور كسر ساقه وهو يتزلج؟ هذا أمر غير ملائم.. ألا يستطيع العودة إلى نيويورك؟ حسناً، أرسل له الوثائق إلى «آسبن» بالبريد إذن! التأخير لا يمكن أن يفيد.. لا أستطيع كبح بن أكثر من هذا..

علق السماعة فجأة.. ودخلت أليدا المكتب.. بدا مندهشاً لرؤيتها ومرتبكاً قليلاً.. ثم استعاد رباطة جأشه العادي وأشار إليها لتجلس.. وتذكرت الهاتف:

- أوه.. مايس.. نسيت أن أقول لك.. تلقيت مخابرة غريبة وأنت غائب.. في نيويورك.

- غريبة؟

- من امرأة.. بدا أنها تكلم شخصاً اسمه «كوكو» وأقفلت الخط قبل أن أعرف اسمها.

ضحك مايس:

- أوه.. هذه الأميرة.. تتوقع من الجميع أن يعرفها.. لذا لا تذكر اسمها أبداً.

- الأميرة؟

- إنها ليست أميرة فعلاً.. لقد ولدت تحت اسم رايان فراير..

وعبر سلسلة من الأزواج، وصلت إلى أمير روسي.. بين زوج وزوج، تعود إلى استخدام لقبها الذي تمتعت به وهي زوجة لذلك الأمير..

- وكوكو؟

- إنه قردها المدلل.. يسافر إلى كل مكان معها.. إنه مخلوق صغير كريه.

رن جرس الهاتف.. ورد مايس عليه.. بعد لحظات سمعت خلالها أليدا صوتاً أجشاً متواصلاً، غطى مايس السماعة بيده وهمس:

- تكلم عن الشيطان.. إنها الأميرة.

حين تمكن أخيراً من إقفال السماعة، مرر أصابعه في شعره بانزعاج.

- والآن.. لماذا أردت رؤيتك.. أوه.. صحيح.. بائع الزهور.

فتش في درجه عن حلقة مفاتيح أعطاها لها:

- سأترك هذه المفاتيح في عهدتك.. سيصل أخصائي زهور ليتفحص قاعة الرقص الكبيرة اليوم كي يقرر أي نوع من الزهور يلزم لتزيين حفل جمعية الرفق بالحيوان الراقص.. مارغريت ستكون في الخارج تتسوق في مخزن البقالة بعد الظهر.. لذا أريدك أن تدخليه حين يصل.

دست أليدا المفاتيح في جيبها.. وغيرت الموضوع بسرعة:

- مايس.. هناك شيء أريد أن أعرفه. هل صحيح أن بالإمكان إنقاذ زانادو أم أن الوقت متأخر؟

تراجع مايس في كرسيه ينظر من النافذة للحظات، حين التفت عيناه عينيها كانت ابتسامته تسلب اللب:

- لماذا السؤال؟ هل بدأ بن يؤثر عليك؟ هل قال لك إنني قد أبيع جدتي لأكسب دولاراً؟

- حسناً..

- أعرف.. أعرف.. إنه يقول هذا للجميع.. صدقيني ألبدا لا يمكن لشيء أن ينقذ زانادو. دايفد تاكر أحد الشركاء المالكين لمؤسسة كاونت وقع العقد، ولسوف يوقعه جورج سايلور حال أن يعود من إجازته في أسبن.

كانت لهجته ناعمة مخادعة.. والتزلج.. أسبن.. لقد سمعته يقول في الهاتف إن سايلور كسر ساقه ولا يستطيع العودة إلى نيويورك! ثم.. هناك شيء آخر سمعته.. ما هو؟ أجل! لقد قال: لا أستطيع كبح بن أكثر من هذا!!

ابتلعت ريقها بصعوبة، وتحركت بغير ارتياح في كرسيها.. إنه وقت البقاء صامتة غير متورطة في أمور شخصية بين رب عملها وشقيقه.. لكنها قالت:

- سمعتك تقول على الهاتف إن سايلور كسر ساقه!

- وهل سمعت هذا؟

هزت رأسها أمام حدة سؤاله، وارتفع الدم إلى وجهها.

- لم أكن أقصد استراق السمع. كنت أقف في الخارج أنتظر انتهاء مخابرتك.. ولم أكن أعرف أنها خاصة.

وقف مايس مستعيداً رباطة جأشه.. واستدار حول الطاولة ليضع يده على كتف ألبدا:

- هذا غير مهم. فكما قلت لك.. بيع زانادو سيجري كما هو مخطط له.. ولا شيء يمكن لبن، أو لأي كان، أن يفعله لمنعه.

كان تعبير وجهه لطيفاً دمثاً.. لكن لماذا تظن أن صوته كان له حدة قاسية، وأن عيناه الرماديتان الناعمتان تخفيان بريق الفولاذ؟ وأكمل:

- على أي حال، أنت وأنا لدينا أشياء أكثر أهمية لنتحدث عنها، يمكننا بحثها على العشاء.. أتناسبك الساعة السابعة؟

هزت رأسها مرتاحة لتغيير الموضوع، وأكمل:

- جيد.. سأطلب من مارغريت أن تقدم لنا كوكتيل عصير فاكهة في المقصورة.. وبالطبع سترتدي ثياب السهرة.

تحرك إلى الخزانة خلفها ليشغل نفسه في ترتيب كومة من الأوراق.. وهو يستعد ليخرج، أدركت ألبدا أنه يصرفها.

تقدمت إلى الدرج المقوس الذي يعود تاريخه إلى العصور الوسطى، ونزلت إلى الطابق الأرضي، حيث فاجأها بن بالظهور من غرفة الردهة.. رماها بنظرة احتقار فانكمشت.. وقال لها ساخراً وهو يمر بها:

- هل كنت وأخي في مؤتمر للتخطيط للهدم؟

واختفى قبل أن تستطيع الرد.. فتمتمت لنفسها يائسة:

- أوه.. بن.. لو أنك فقط لست غاضباً هكذا.

حين جاء منسق الزهور في الساعة الثالثة، أوقفت ألبدا عملها ورافقته إلى قاعة الرقص الكبيرة.. جلست لحظات في كرسي مذهب رقيق، تراقبه يقيس المساحات.. كانت تحب أن ترى قاعة الرقص مستخدمة، وتمنت لو خطر ببالها أن تسأل مايس عن موعد الاحتفال.. لكنها افترضت أنها ستغادر زانادو قبل الموعد.

بعد مغادرة منسق الزهور، قررت ألبدا أنها أنهت اليوم ما يكفي ليوم واحد، ولم تعد ترغب بأكثر من الهواء النقي بعد ساعات طويلة من الوقوف في خزائن المستودع.. خرجت تسير لنصف ساعة في حديقة المنحوتات الساكنة..

عند حافة العشب، كان هناك حاجز من نبات الخباز المرتفع مليء بالزهور الحمراء.. اقتطعت زهرة مزدوجة لتضعها خلف أذنها حين ترتدي ثوب العشاء، مما يكمل جمال الفستان الذي تنوي أن ترتديه.

الثوب الذي اختارته كان من الشوفين القرمزي الدقيق التفصيل.. له شال مماثل يلف عنقها. أبعدت شعرها عن عنقها وربطته بمشبك

قضي تترك بضع خصلات خفيفة حول وجهها، ثم دست زهرة الخباز خلف أذنها اليسرى.

استدارت تتفحص نفسها أمام المرآة.. بدا هذا الفستان في شيكاغو مبهرجاً، يتعارض تماماً مع محيطه المتجهم.. أما هنا، حيث الألوان متنوعة تهاجم الأحاسيس فقد بدا متناسباً تماماً.

طرق كعبا صندالها الساتاني اللماع على الأرض العريضة لقاعة الرقص وهي تتقدم إلى الأبواب الزجاجية للمقصورة.. وكان منظر الفناء في الخارج ساحراً. كانت نوافير الماء الناعمة تنهمر بأقواس رشيقة نحو المنتصف والبركة مضاءة من الداخل، والنور يحول كل قوس ماء إلى قطرات ألماس لامعة.

تقدم مايس منها بابتسامة ترحيب:

ـ أنت جميلة جداً الليلة أليدا.. استديري لأراك جيداً!

استدارت أليدا، ثم توقفت فجأة في الوقت المناسب لترى الإعجاب في عينيه.

ـ أتودين شيئاً لتشربيه؟

طلبت كوب كوكتيل عصير الفاكهة.. وببطء أخذت أول رشفة لها، ثم جاءت مارغريت بصينية كبيرة من المطبخ، وأشعلت الشمعات في الشمعدانات الكريستالية على طاولة صغيرة مفروشة بالدانتيل الأبيض، ومحضرة لطعام اثنين.

بينما مديرة المنزل تستدير لتعود إلى المطبخ استدعاها مايس:

ـ أوه.. مارغريت.. أنا أنتظر مخابرة هامة هذا المساء. أرجو أن تبلغيني حال أن تصل.

تمتمت مارغريت:

ـ طبعاً سيد مايس.

وتركتهما لوحدهما.

أمسك مايس الكرسي لأليدا بلباقة، ثم جلس قبالتها.. بعد فترة سأل:

ـ أخبريني عن نفسك، من أين أنيت.. وإلى أين ستذهبين؟

وجدت نفسها تخبره عن حياتها في شيكاغو، عن عملها مع والدها، ودراساتها في المعهد.. وأصغى لها باهتمام ولم تستطع إلا أن تتساءل كيف يجد حياتها مثيرة للاهتمام.

ـ وبعد إنهاء عملك هنا.. ماذا بعد؟

ابتلعت أليدا هواجسها حول العمل في «زانادو»، وهزت رأسها:

ـ لست أدري.. سأعود إلى شيكاغو كما أعتقد، وأستعيد نمط الحياة من حيث تركته، مع أن هذا أمر سيكون صعباً جداً دون أبي.

وغمرها الإحساس المكتئب مجدداً.

أحس مايس بتغيير مزاجها، واقترح عليها أن يتمشيا بعد العشاء في الحديقة.. كان جو الليل معطراً بأريج الياسمين الذي يدير الرؤوس.. وسارا معاً ببطء دون تلامس.. لكن حين وصلا المرج الواسع، وضع أصابعه في أصابعها.. وفكرت بشكل لا منطقي: ليت بداه لم تكونا بهذه النعومة! وصدت اندفاعاً مفاجئاً لتضحك.. ربما ما كان يجب أن تسمح لنفسها بهكذا حريّة الليلة.

قادها إلى ما وراء البركة نحو الظلال القاتمة تحت الظليلة، حيث توضع الكراسي الخشبية التابعة للحديقة ليلاً.. وأشاحت أليدا نظرها عن بركة السباحة.

لكن، وقبل أن تدري، أصبحت بين ذراعيه مستندة إلى صدره وأخذ يحدلها بطريقة لم تترك لها مجالاً للشك في نواياه:

ـ أليدا.. أليدتي.. أليداميا.. أتعرفين ما معناها بالإيطالية؟ كاراميا تعني عزيزتي..

رفعت أليدا رأسها، ولمحت حركة خفية من طرف عينها

فاستدارت قليلاً لترى شكلاً آدمياً يقف من وضعه المسرحي فوق كرسي خشبي قريب. وقال صوت مألوف: أستسلم.

شهقت أليدا، وقفزت من بين ذراعي مايس واللون الأحمر يتصاعد إلى وجنتيها.. ولم يعد هناك شك بأن اللحظة دمرت.

صاحت، في نفس الوقت الذي صاح فيه مايس، عجباً: بن!

ثم أكملت أليدا بغضب:

- كان يجب أن تعلمنا أنك هنا!

ظهر بن من الظل، يتمطى متكاسلاً:

- وكيف أستطيع؟ لقد أنهيت لتوي سباحتي المعتادة في ضوء القمر. وتمددت لأرتاح لكنني غفوت ولم أستيقظ إلا بعد تقدم أحداث المسرحية.. وفي هذه اللحظات بدا لي من الأفضل البقاء كما أنا.. إلى أن..

استدار إلى أخيه بابتسامة خبيثة:

- ... إلى أن سمعتك ترددين جملتك الشهيرة «كارامبا».. حتى أنت مايس يجب أن تتحسن.. لم يكن هناك مفرّ من إنقاذ «السيدة» من المزيد المتكرر.

واجه الأخوان بعضهما.. مايس ينظر إلى بن، وبن يقف وساقاه منفرجتان، ويداه على خصره النحيل.. راجعت أليدا المنظر وكأنه فيلم فيديو.. دخولها ومايس إلى المقصورة وبن نائم هناك، ليستيقظ على همسات رومانسية لرجل آخر، وأخيراً النهاية الكوميدية بافتراقهما عن بعضهما بسرعة وكأنهما مراهقان.. ثم فعلتْ ما لا يمكن غفرانه خاصة بالنسبة لمايس: ضحكت.

ثم لم تعد تستطيع تمالك نفسها من الاندفاع.. ضحكت حتى تصاعدت الدموع إلى عينيها، ثم ضحكت المزيد.. نظر مايس إليها نظرة متحجرة، لا يجد شيئاً مضحكاً في الموقف كله، لكن بن بدأ

وفاجأ أليدا بانضمامه إلى ضحكها.

حين بدأت أخيراً تستعيد سيطرتها على نفسها، بدأت تحاول تبرير ضحكها لمايس لكن تفسيرها لم يكن له تأثير.

- الأمر فقط.. أنني.. وأنت.. الأمر كله..

وشهقت في محاولة باهتة لتصحيح الأمور، لكن وجه مايس بقي قاسياً.

في الوقت الذي بدأت فيه تتمنى لو تختفي من الوجود سمعوا صوت مارغريت تنادي:

- سيد مايس! الهاتف! إنها المكالمة التي تنتظرها!

نظر مايس إلى بن نظرة حقد بحتة:

- لقد تماديت كثيراً هذه المرة بندكت.

ثم التفت إلى أليدا يقول متصلباً:

- أخشى أن تكون الأمسية قد انتهت.. ربما ستنظرين إلى ما حدث الآن بمنظار آخر في الغد.

ثم سار متصلباً مبتعداً.

بقيت وحدها مع بن.. فنظرت إليه بارتباك، فقال بما يشبه المرح المتسلي:

- إذن.. أخي لا يملك شيئاً من روح المرح، أليس كذلك؟

ردت ملهولة لاستعادتها السريعة لرباطة جأشها:

- يدهشني أن تملكها أنت.. فأنا لم أرك يوماً تضحك من قبل. في الواقع ظننتك غير قادر على الإحساس بالمرح. كنت دائماً.. ساخراً.

صمت لحظات:

- كما قلت لك، أنت تساعدين مايس لتسديد ضربة الموت لزانادو.. وأنا أكرهك لهذا.. مع ذلك فهناك شيء حولك..

لم ينهِ جملته.. وأحست أليدا في الضوء المعتم للمقصورة أن

وجهها أصبح دافئاً تحت نظرته.. وأن ثوبها الأحمر يزيد التركيز على شعرها الأسود وأحست بنسيم البحر يرفرف طرف المنديل حول عنقها. فارتجفت، لكن ارتجافها لم يكن نتيجة هواء الليل البارد

تكلم بن بنعومة.. لكن لا مجال للخطأ في مشاعره الخفية وراء الكلمات.

- سأخطو ثلاث خطوات إلى الأمام.. أليدا برايس.. ثم سأحتضنك. كل ما عليك فعله لمنع هذا هو أن تبتعدي.

نظرت إليه، وبدا لها أنه لا بد يسمع ضربات قلبها من حيث يقف.. بدلاً من أن تستدير مبتعدة عنه، وجدت نفسها تخطو خطوة طوعية قصيرة نحوه.. ثم.. ضمها إليه بقوة محت كل فكر من رأسها.

رفع رأسه بنظرة سؤال، عيناه حادتان عليها.. ثم أمسكها مثبتاً بكتفيها ونظر إليها طويلاً.. قالت محرجة:

- أنا.. أنا أحس بالدوار.

رفع حاجبه بطريقته المثيرة للسخط.

- أجل.. يبدو أنك دائخة فعلاً.. أنت في الواقع ترتجفين على قدميك! لن أستغل حالتك هذه.

انحنى يسترد المنديل الأحمر عن الأرض.. رماه دونما اكتراث على كتفه، وأمسك أليدا بمرفقها.

احتجت: لكن.. لكن..

- دون لكن.. على أي حال، أنا واثق أنني سأضطر للرد على مايس بالنسبة لأي ضرر يصيب مساعدته.. سأرافقك إلى المنزل لأتأكد من وصولك سالمة.

أسرع بها عبر المرج إلى المنزل، حيث تركها عند أسفل السلم بانحناءة ساخرة. أحست بالإذلال والغضب من نفسها لإفسادها تلك

الأمسية، أولاً بضحكها، ثم برميها نفسها عليه.. رمى لها المنديل قبل أن يختفي في الظلام.. فسلقت السلم ببطء، تجرجر المنديل الأحمر خلفها.. لقد أربكها بن أكثر من أي وقت مضى.

في غرفتها جلست أمام النافذة المفتوحة تنوي تمشيط شعرها، لكنها بقيت جالسة هناك تتلاعب بالفرشاة.. رفعت رأسها تحاول رؤية أي ضوء في كابينة بن، لكن التعاريش البحرية كانت تخفي المنظر عنها.

راقبت الأمواج المزبدة تتكسر على الشاطىء.. وبقيت صورة بن تلمع في رأسها وهو يضمها إليه في كابينته.. بن المتناقض، الغامض.. نظرت لحظات نحو الكابينة قبل أن تقفل النافذة، والتقط النسيم تنهيدتها ليردها صدى فوق قباب زانادو المستحمة بنور القمر.

* * *

٤ ـ الصيادة في الشبكة

أيقظ قرع مارغريت الناعم على الباب، أليدا من نوم عميق. فتحت الباب متثائبة، فتقدمت مارغريت إلى طاولة منخفضة يحيط بها كرسيان، ووضعت صينية عليها البرتقال المقطع، القهوة في إبريق من الفضة، والبيض والتوست تحت غطاء واقٍ. . وقالت مبتسمة:

ـ فكرت أنك قد تحبين تناول الفطور في السرير هذا الصباح بعد سهرتك المتأخرة.

رفعت الغطاء عن الطعام:

ـ آه. . يبدو لذيذاً.

جلست أليدا تفتح المنديل الناعم بينما راحت مارغريت تزيح الستائر عن النافذة، وسألت:

ـ هل أنهيت عملك في غرف المخازن التابعة لغرفة الطعام؟ لقد طلب مني السيد مايس أن أعرض المجموعة اليابانية على تاجر محلي بعد إتمام تقييمك.

قالت أليدا:

ـ قبل أن يأتي التاجر يجب أن أقوم بتقييم الأواني في اليخت. . فمن المحتمل أن تكون أشياء من المنزل قد نُقلت إليه. أتظنين أن باستطاعة كالب أن يقلني إلى هناك هذا الصباح؟

ـ أجل. . أعتقد ذلك. في أي وقت ترغبين في الذهاب؟

قضمت أليدا قطعة توست:

ـ بعد نصف ساعة. . مناسب؟

ـ سأبلغه أن ينتظرك في الكاراج.

وأقفلت الباب وراءها بهدوء.

يقع الكاراج في زاناذوا في باحة الخدمات خلف المطبخ. توقفت أليدا في غرفة الطعام لتلتقط لوحة الكتابة والأوراق التي تجري عليها التقييم. وتبسمت مارغريت لدى مرور أليدا بالمطبخ مشيرة بيدها:

ـ أراك لاحقاً.

كان الصباح مشرقاً مشمساً، والنسيم البحري بارد له رائحة البحر والأزهار. .

شاهدت كالب يمر عبر الغرفة الزجاجية المخصصة للاستنبات والتي تحجب الكاراج عن الحديقة. . حياها بحرارة وقال:

ـ تعالي. . سنستقل السيارة الستايشن إلى الميناء.

كان الكاراج طويلاً، فيه فسحات متعددة بين الأعمدة. بعضها تحتله سيارات والبعض الآخر فارغ. . ورأى كالب أليدا تنظر إلى سيارة صغيرة لماعة، فقال لها:

ـ هذه سيارة السيد مايس موديل ١٩٥٧ «تي بيرد». . ولقد أصبحت ذات قيمة أثرية الآن. . هل تعجبك؟

ـ لمن هذه الرولز رويس؟

ـ للسيد مايس أيضاً. يستخدمها للذهاب إلى دعوات العشاء الفاخرة وما شابه ذلك.

أشار إلى قولز واكن حالتها مزرية وقال:

ـ ما زال السيد بن يحتفظ بهذه القولز واكن. . رغم انزعاج السيد مايس الشديد منها.

لم تستطع أليدا أن تبعد عن تفكيرها سيارتها المماثلة في كاراج

منزلها في شيكاغو.

أخرج كالب السيارة بحذر، وقادها إلى طريق خاص ضيق.

ـ هذا الطريق يوصلنا إلى الميناء في البحيرة حيث يرسو اليخت.. ستجدين راحة في العمل هناك دون إزعاج من أحد.. لكن يحتمل أن يزور القبطان بيتش وابنه لاري اليخت ليجريا صيانة لأحد محركاته.

أخذت الطريق تتلوى عبر أدغال استوائية مليئة بالنباتات البرية النامية.. وانتهت الطريق إلى بقعة بيضاوية محاطة. كان يخت آن راولي ـ كوبلا خان ـ يقف في المرسى، يتهادى بلطف.

أخذ كالب يد أليدا وقادها فوق المرسى.. ثم رافقها في جولة على اليخت، بدءاً من الطوابق السفلى.

تقع الغرفة الرئيسية في مقدمة اليخت، وفيها سريران خشبيان مثبتان إلى الجدران.. إلى جانبها حمام تحده غرفة نوم رئيسية، إلى شمالها غرفة كبيرة أخرى، مفروشة بسرير كبير ضخم ومطلية باللون الأبيض. أما المطبخ الصغير فيقع خلف الغرفة تماماً.. بالإضافة إلى غرفة الجلوس الكبيرة المسماة «صالون» والتي يدل ترتيبها وديكورها الموشى بالأزرق والأخضر على ذوق رفيع.

بدأت أليدا عملها في المطبخ بعد أن تركها كالب وأخذت تفتح أبواب الخزائن الصغيرة.. وسرعان ما اكتشفت أن المطبخ ـ بالرغم من ضيق مساحته ـ يحوي كمية كبيرة من الأواني المخزنة. وقد وجدت بينها قطع ثمينة من البورسلان الياباني، بدأت عملها بها.

دهشت بعد فترة وجيزة لسماعها وقع أقدام على السطح، تُرافقها ضحكة رجل من القلب.. نظرت من الكوة المفتوحة فرأت رجلاً ممتلىء الجسم في ثياب قبطان يقف إلى جانب مراهق نحيل. لا شك أنه القبطان بيتش وابنه جاءا ليتفحصا محرك اليخت، هذا ما قالته لنفسها، وعادت لتكمل عملها.. لم يكونا على علم بوجودها على متن

اليخت، لكن لا أهمية لذلك بالنسبة إليها فبإمكانها أن تعرّف عن نفسها فيما بعد حين تصعد إلى السطح الأعلى.

قاطع ضجيج المحرك القوي تركيزها. شعرت وكأن المركب يتحرك.. نظرت بسرعة نحو الكوة الصغيرة ما بين الخزانة ورف المغسلة، لترى اليابسة تبتعد رويداً رويداً عن ناظريها.. لماذا.. إنهم يتركون الميناء خلفهم!

استدارت بذعر في ذات اللحظة التي بدا فيها ظل بن المألوف لديها، وكم كانت دهشتها كبيرة لأنه لم يبدِ أي إجفال لرؤيتها.. بل راح ينظر إليها وعلى ثغره ابتسامة متفهمة قبل أن ينزل الدرجات القليلة ليصل إلى المطبخ.

ـ اعتقدت أنني سأجدك هنا.. إنه مكان غريب للقاء..

احمر وجه أليدا.. فبالرغم مما جرى بينهما ليلة أمس، إلا أنها تجد نفسها كارهة لافتراضه بأنها مسرورة لرؤيته.

ـ كن واثقاً أنني لم أخطط لهذا الأمر.. كنت أقوم بتقييم محتويات المطبخ فقط.. ولم أكن على علم بأنك ستستخدم اليخت اليوم!

ـ في الواقع لم أخطط لذلك أنا أيضاً.. لكن الكابتن بيتش أراد أن يجرب أحد المحركات لمسافات بعيدة.. وبدا له من العار أن يضيع الرحلة دون صيد في المياه العميقة. ثم سمعت من كالب أنك تعملين هنا، فقررت.. هل اصطدت السمك في المحيط من قبل؟

هزت برأسها نفياً. فقال بن:

ـ عظيم.. بإمكانك الانضمام إليّ على السطح لتجربي.

ـ لكن.. عملي..

صاح:

ـ أوقفيه! ألا يمكنك أن تنسي سبب وجودك هنا لصباح واحد فقط؟ أتمنى أن أستطيع ذلك أنا أيضاً!

أقنع انفجار بن أليدا أن من الأفضل مجاراته، فوضعت لوحة الكتابة جانباً، وتبعته إلى السطح بملء إرادتها.

وجدا لاري ينظف المقاعد الخشبية بمنشفة قديمة.. فابتسم لهما بمرح، وقال واعداً:

- سيكون لنا صيد جيد اليوم.

نظرت أليدا إلى كراسي الصيد الثقيلة مفكرة:

- تبدو هذه المقاعد وكأنها لعيادة طبيب أسنان.

قال بن شارحاً:

- تسمى مقاعد المقاومة.. كما ترين هي مربوطة إلى السطح كي لا تجذب السمكة الصياد عن سطح المركب.. وهذه الدواسات ستساعد في تثبيت أقدامنا حين نسحب سمكة.

أشار إليها لتجلس وتمدد في المقعد إلى جانبها. كان لا يرتدي سوى بنطلون جينز مقصوص، وبدا مرتاحاً جداً.. أسندت أليدا نفسها إلى ظهر المقعد وهي تنظر إلى أشجار النخيل المنحنية على شواطىء پالم بيتش الغربية المجاورة..

أدار الكابتن بيتش «كوبلاخان» نحو الشمال باتجاه مدخل خليج پالم بيتش.. وأشار بن إلى أول جسرين متحركين أمامهما يصلان جزيرة پالم بيتش بالأرض الرئيسية.

- يرتفع الجسران كل نصف ساعة لعبور المراكب.. وأظننا سنصل إلى هناك في الوقت المحدد.

أبطأ القبطان سرعته وهم يمرون تحت الجسر الأول.. تباطأوا قليلاً قبل عبور الجسر الثاني ليكملوا بعدها الطريق شمالاً نحو البحر.

كانت المياه شبه هادئة اليوم بحيث لم تؤثر في انطلاقة اليخت، لكنها كانت تتسبب بحركة خفيفة.. وكان إحساساً رائعاً أن يتأرجح المرء إلى الوراء وإلى الأمام.

قال بن يرمي ذراعه عفوياً على كتفيها: انظري.

التفتت حيث أشار لترى لونين مختلفين لمياه المحيط أمامهما، أحدهما أزرق غامق، والآخر أخضر شفاف. وسألت:

- لمَ هذا الاختلاف؟

- المياه الزرقاء هي التي تندفع من الخليج المكسيكي الحار التي تلتقي في هذه النقطة القريبة جداً منا بالتيار القادم من شمالي الأطلسي. أما المياه الخضراء الداخلية فهي الموطن الذي يتواجد فيه سمك «السلفيش» بكثرة..

خف ضجيج المحركات على بعد حوالي الميلين من الشاطىء، وراح المركب يتهادى ببطء.. وبدا أن لاري يعمل في المركب يرتب العدة، يتفحص الحبال والأشرعة.

وضع لاري قصبتي صيد لهما بكرتا لف في مكانين مخصصين لهما قرب المقعدين، ثم وضع الطعم على الخطافين الكبيرين قبل أن يرميهما إلى البحر..

رأت أليدا على مسافة بعيدة سرباً فضياً من الأسماك تدفعه سمكة كبيرة إلى الأعلى.. فقال لاري:

- هذا دليل جيد.. فحين تقفز الأسماك الصغيرة من الماء، تكون إشارة إلى وجود الأسماك الكبيرة خلفها.

مضت عدة دقائق كان القبطان بيتش قد خفف خلالها سرعة المركب وراح يسير به في طريق ملتوية، وخيوط الصيد تُسحب خلفه.

جلست أليدا وبن على مقعديهما باسترخاء تام.. فما عليهما سوى انتظار أن تضرب السمكة الكبيرة الطعم.. وتحولت أليدا إلى مزاج ناعس، فمدت قدميها فوق دواسة الأقدام المرتفعة، تعرضهما لأشعة الشمس... كان لونها الأبيض قد بدأ يميل إلى الذهبي وتذكرت ما قاله بن في اليوم الأول لوجودها في القصر.. قال إن لونها الشاحب يجعله

لا يعجب بها. وقاطع صوته أفكارها الناعسة:

ـ أخبريني أليدا.. هل أعجبتك فلوريدا؟

ابتسمت له بسعادة، وقالت بحماسة:

ـ أجل أحببتها!

بدأت تشعر وكأن الشمس الدافئة أذابت شيئاً متجمداً حول قلبها.. لكنها لم تجد الكلمات المناسبة لتعبر له عن ذلك.

جلسا في صمت توافقي لعدة دقائق وهما يراقبان الزبد الأبيض المتكون خلف المركب.. رأت أليدا سمكة سيلفيش فضية تقفز كالقوس فوق الماء.. سُرَّ بن كثيراً لرؤيتها وأدرك أنهما سيحصلان على الصيد قريباً.

ثبت أنه على حق حين اهتزت الصارية فجأة.. وصاح لاري وهو يخرج من القمرة:

ـ إنها إصابة!

هاجمت السمكة خيط أليدا.. فشدت بقصبة الصيد فريزياً.. أحست أليدا بشدة قوية مع استقرار الطعم في فم السمكة.. فلم تتمالك نفسها عن الانحناء بينما كانت السمكة تجري مع الطعم.

أخذ لاري يعطيها التعليمات وهي تحارب السلفيش الضخمة.. وكانت تستجيب لما يقول، وتتمسك بالقصبة بقوة.. وناور القبطان بيتش بمهارة «بكويلاخان» ليساعد أليدا على الانتصار على السمكة واختصار وقت المعركة.. أخذ بن يصيح مشجعاً بين حين وآخر.. لكنه فضّل ألاّ يتدخل ليعطي أليدا فرصة الانتصار على السمكة القوية بنفسها.

شدت أليدا القصبة وحبست أنفاسها، مصممة ألاّ تدع صيدها يفلت منها. بعد معركة حامية هُيِّء لأليدا وكأن دهراً مر على بدايتها، بدأت السمكة تفقد قوتها.. وما هي إلاّ لحظات حتى لمعت بلونها

الفضي الجميل تحت أشعة الشمس بينما كانت أليدا تلف بكرة الصيد لتقربها إلى المركب. مال بن إليها ليساعدها في لف خيط الصيد بعدما بدأت ذراعاها ترتجفان تعباً.. لف ذراعاء القويتان حولها ووضع يده الخشنة فوق يدها على البكرة، يعطيها القوة التي تحتاجها لإيصال السمكة إلى المركب.

حين بدأ الإعياء يظهر عليها، بانت السمكة تحت المركب.. ففتح لاري باباً في أرض المؤخرة وأخرج السمكة من الماء بقوة ولبات.. كانت حيواناً مخيفاً لها منقار طويل يبلغ الخمسة عشر إنشاً..

نظر بن إلى أليدا مهنئاً:

ـ حسن جداً أليدا.. يبدو أنك حصلت على سمكة تزيد عن الخمسة والعشرين كيلو غراماً.

ولم يفتها أن ترى نظرات الإعجاب في عينيه.

أنهكت قواها بسبب الجهد الذي بذلته لاصطياد السمكة، وقد وعى بن ذلك فقال جاداً:

ـ نحتاجين إلى الراحة قليلاً.. دعينا ندخل القمرة ونرتاح.. على أي حال، قارب وقت الغداء.

نظرت إلى السمكة العظيمة قبل أن تلحق بين إلى الصالون الفسيح. حيث غاصت بارتياح فوق مفارش الأريكة العميقة، ورفعت نظارتها السوداء الكبيرة فوق جبينها.. ثم قالت مرهقة:

ـ هل رأيت القوة التي كانت السمكة تشدُّ بها خيط الصيد؟ لم تقل لي أن الأمر سيكون على هذا النحو الخطر.

ـ هناك أشياء من الأفضل ألاّ تقال.. أكنت ترغبين في التقاط سمكة سيلفيش لو كنت تدركين سلفاً صعوبة الأمر؟

تذكرت الإثارة في جذب السمكة الجميلة إلى المركب.

وصاحت:

- أجل.. كان الأمر مثيراً.. لست أدري ما إذا كان الوقت سيسمح لي بالتمتع برحلة صيد أخرى في البحيرة.

- الصيد في المياه العميقة رياضة مختلفة.

تقدم بن ليفتح البراد في المطبخ، فقالت أليدا بدهشة:

- بالتأكيد لا يوجد فيه طعام.

- بلى.. نحن نبقي المخزون كاملاً في «الكوبلاخان»، فأنا قد أخرج للصيد في أي وقت دون تخطيط مسبق.. ومايس يستخدمه لإقامة الحفلات.

- دعني أساعدك

- لا.. ابقي حيث أنت، تستحقين الراحة.

عاد من المطبخ بصينية وضعها على ركبتيها.. كانت عليها قطع خبز بالزبدة وشرحات لحم مقدد.

بعد الانتهاء من تناول الطعام، وضع بن الصحون في المغسلة الصغيرة ليغسلها لاري فيما بعد.. ثم أدار آلة التسجيل وجلس إلى جانبها يراقبان الخط الساحلي أمامهما.

أحست أليدا بالرفقة الطيبة مع بن.. وتراءى لها أنه يبادلها الشعور ذاته.. فاستدارت قليلاً لتواجهه:

- أليس مُرضياً أن نكون على وئام بدل أن نتشاجر ونختلف؟

لم يرد بل نهض وسار باتجاه النافذة.. تعابير وجهه غير مقروءة بالنسبة إليها.. ربما هو يفكر بليلة أمس وبذاك الشعور المجنون الذي غلفهما معاً.

كانت تحاول اختيار كلماتها التالية حين انفتح الباب وظهر لاري ليسأل:

- يسأل والدي عما سيفعله بالسمكة؟

قال بن متجهماً:

- قل له أن يدخّن اللحم ويجففه، ثم يأخذ الجلد إلى محل التحنيط لحشوه.

التفت إلى أليدا:

- سنأخذين معك تذكاراً رائعاً من فلوريدا إلى شيكاغو.

لحق بن بالصبي دون أن يضيف ولو كلمة واحدة، تاركاً أليدا وحيدة مع أفكارها المشوشة.

تهادى كوبلاخان بنعومة قرب مرسى زانادو فتنهدت أليدا وألقت نظرة أخيرة على السطح حيث كان بن يساعد لاري على ربط الحبال. ودون رغبة في إثارة عدوانيته مجدداً، نزلت إلى المطبخ تستعيد لوحة كتابتها، وأوراقها الخاصة.

سمعت القبطان بيتش وابنه يسيران فوق السطح، ثم سمعت صوت باب سيارتهما وظنت أن بن قد ذهب معهما.. لكنها أجفلت لرؤيته ينزل السلم إلى حيث تقف.

قالت متلعثمة: ظننتك ذهبت.

لماذا تهرب الكلمات منها حين يكونان وحيدين؟ لكن ما أراحها أن بن لم يلاحظ ذلك.. والتقت عيناها بعينيه، حاولت إبعادهما إلا أنها وجدت ذلك مستحيلاً. كانت تمسك بطبق زجاجي صغير، تشده إليها بقوة.. لكن شيئاً ما حدث.. ربما كانت راحتاها مبللتين عرقاً.. فانزلق الطبق إلى الأرض الخشبية وتحطم. شعرت بالحرج والرهبة يجتاحانها.. يبدو أن من المقدر لها أن ترتبك كفتاة مراهقة كلما التقت عيناها بعينيه.. كل ما استطاعت قوله:

- أوه.. لا!

انحنى بن يلم القطع المبعثرة، فقالت:

- دعني ألتقطها.

وانحنت في اللحظة ذاتها فاصطدم رأسها برأسه وهو ينهض.

كان الاصطدام قوياً لدرجة أن عينيها فاضتا بالدموع.. فركعت فوق الزجاج المكسور تمسك رأسها بين يديها. لم تكن تهتم ما إذا كانت ستجرح نفسها أم لا.. لم تعد تهتم بأي شيء سوى بدموعها وتمنت لو أن بن يدعها وشأنها لتواجه مرارتها بنفسها.

كلمها ممازحاً:

ـ مذهلة هي الأشياء التي تفعلينها. لو لم أكن أعرفك لظننتك تخططين مسبقاً لتعذيبي.. لكنك لن تنجحي وتعرفين هذا.

رفعت وجهها المبلل بالدموع، فضمها بين ذراعيه وأوقفها.. فالتفت ذراعاها حوله لتشده إليها.

سمعا صوت باب سيارة ينغلق بقوة.. فتراجع بن ومال لينظر من الكوة. ثم قال بمرارة:

ـ اللعنة! إنه مايس.. هل خططت لهذا أيضاً؟

هزت رأسها مُجيبة: لا.. بالطبع لا.

وضع قدماً على السلم واستدار قائلاً:

ـ ربما فعلت، وربما لا.. لكن تذكري أن ما بدأ بيننا لم ينته بعد.

تابع طريقه إلى سطح المركب متجاوزاً مايس دون أن يُحييه.. في هذه الأثناء راحت أليدا تكنس حطام الزجاج وهي راكعة على ركبتيها، فسألها مايس:

ـ ما الذي حدث؟

ـ لقد أوقعت صحناً.

وأطرقت برأسها نحو الأرض لإخفاء توترها واستعادة السيطرة على مشاعرها.. وأكملت:

ـ لكنه صحن غير ثمين.

قال:

ـ في المرة القادمة اتركي أي شيء للاري كي ينظفه.

رمت الزجاج المكسور في سلة مهملات واستدارت نحو مايس:

ـ أشكرك لدعوتي إلى العشاء ليلة أمس.. كان الطعام لذيذاً حقاً.

ـ أنا مسرور لتمتعك به أليدا.. وأرجوك لا تعتذري عما حدث بعده.. كان أخي من أغضبني.. والآن أيمكن أن أوصلك إلى المنزل؟ سأكون مسروراً بلعب دور السائق لك.

ابتسم لها، واضح أنه يريد أن يعوّض عليها.

فجأة أدركت كم هي ممتنة لاهتمامه بها ولعرضه العمل عليها. لقد كانت تحتاج إلى العمل، بالرغم من أسفها لمصير زانادو.. لقد ساعدها عملها على إبعاد الأفكار السوداوية عنها في هذه المرحلة الحاسمة من حياتها.. قابلته بابتسامة ممائلة إشارة إلى قبولها عرضه.

وهما يقتربان من الكاراج، سمعا أصواتاً قادمة من أمام المنزل. فتوقف مايس ونظرة حيرة على وجهه.. وسألت أليدا:

ـ ما هذه الأصوات؟ ما الذي يجري؟

بدت الأصوات لعدة أشخاص.. لا، بل لمجموعة كاملة.. خرج مايس من السيارة وفتح باب الكاراج، ثم توقف متجهّم الوجه. وقال بحدة:

ـ لنرى ماذا يجري.

أمسك بيدها يشدها وسارا جنباً إلى جنب.. تعالى هتاف الجموع المحتشدة أمام المنزل.. وهما يستديران من وراء زاوية البيت توقف مايس مسمراً في مكانه.

كانت الحشود الكثيفة تملأ المرج الأخضر الأمامي وهم يرفعون لوحات مكتوب عليها: «أنقذوا زانادو» و«لا تهدموه.. بل أنقذوه».. ولوحت فتاة نحو أليدا، وصاحت: لا للبولدوزر! وأنشدت المجموعة لحناً سرعان ما غناه الجميع: لا للبولدوزر! لا للبولدوزر!

نظرت أليدا حولها بذهول، ونسيت عضلاتها المتألمة. رأت أناساً من طبقات مختلفة: بعضهم رث الملابس مثل الفتاة التي بدأت الأغنية، والبعض الآخر ذوو ملابس أنيقة مثل معلمة المدرسة الواقفة عند السلم تغني مع الآخرين.. و.. أصحيح ما ترى؟ أجل، هذا بن قطعاً يستند دونما اكتراث إلى النافورة، يرمقها بنظرات ساخرة.

تقدم مايس غاضباً وقبضتاه مشدودتان ليسأل بن:

ـ ما الذي يحصل هنا؟

رد ببراءة مصطنعة:

ـ هؤلاء بعض من أصدقائي.. طلبت منهم الحضور فلبوا دعوتي مسرورين.. ألا ترى ذلك؟

شاهدت أليدا المتقدمة ببطء خطاً أبيض يتكون حول فم مايس وهو يرغي ويزبد:

ـ سأطلب اعتقالهم لتعديهم على أملاك خاصة، سأرسلهم جميعاً إلى السجن.

ابتسم بن واثقاً من نفسه:

ـ لن تقدر على ذلك يا أخي الكبير.. إنهم ضيوفي.. أنا دعوتهم، أم أنك نسيت أن نصيبي من الأملاك يعادل نصيبك؟

تقدم مايس خطوة إلى الأمام: أيها..

لكن كلامه انقطع بوصول سيارة فان كبيرة شقت طريقها بين الجموع لتقف أمام المنزل.. وراقبها بن باهتمام ومايس بغضب.. كان مكتوباً عليها: تلفزيون بالم بيتش.

قفز رجل قصير يحمل بيده مايكروفوناً من السيارة، تبعه رجلان يحملان آلتي تصوير على كتفيهما.. تقدم المذيع إلى معلمة المدرسة الأنيقة ليسألها:

ـ ما هو شعورك نحو مصير زانادو؟

كورت المرأة شفتيها:

ـ أظنه مصيراً رهيباً ما يخططون له لهذا المعلم الحضاري.

ثم اتجه المذيع إلى صبي طويل الشعر عرّف عن نفسه بأنه تلميذ ثانوي:

ـ إنه أمر سيء جداً هدم هذا الجمال القديم.

بينما كان المذيع يشق طريقه عبر الجموع ينقل التعليقات من هذا وذاك.. استندت أليدا إلى النافورة قرب بن.. الذي سألها بنعومة:

ـ أتريدين الانضمام إلى مظاهرتنا أليدا؟

استدارت إليه ساخطة:

ـ بكل تأكيد لا! لا أستطيع أن أتصور..

قاطعت نفسها لرؤيته المرح الدافىء في عينيه وأكملت بارتباك:

ـ حسناً.. أعني..

وأحست بالإحباط.

ـ اعترفي أليدا.. أنت توافقيننا الرأي.. أليس كذلك؟

ـ تعرف أنني أوافق.. لكن الأمر..

ـ.. مايس؟

ـ أوه.. لا يهم!

حارت أليدا في أمرها، فهي تؤيد المظاهرة وتتمنى الانضمام إلى المحتجين، هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى هي تشعر بالتعاطف مع مايس الغاضب جداً مما يجري حتى وإن لم تكن توافق على خطته فيما يخص زانادو.

وقف مايس صامتاً.. شفتاه مضمومتان بازدراء. نظر بن إلى المتظاهرين الذين كانوا يتبادلون النهاني لجذبهم الاهتمام إلى زانادو، وقفز فجأة إلى حافة البركة يصيح:

ـ انتبهوا.. أنتم مدعوون جميعاً لتناول العصير البارد في منزلي..

دعونا نذهب!

تصاعد تهليل مجنون من الجموع، حتى معلمة المدرسة، وساروا فرحين نحو الكابينة.

قال بن مستدركاً:

ـ أنت مدعوة كذلك أليدا، إذا شئت أن تأتي.

ارتبكت، ممزقة بين مايس الواقف ينظر بغضب إلى الجموع وهي تتحرك مبتعدة، وبين بن.. في تلك اللحظة استدارت فيراري حمراء حول الزاوية لتتوقف بسرعة. ما إن رأت أليدا شعر السائق الأشقر الملوح من أشعة الشمس حتى عرفته حالاً.

تمتم مايس من بين أسنانه:

ـ أوه.. عظيم.. هذا ما أنا بحاجة إليه تماماً.

ترجلت من السيارة فتاة نحيلة الجسد، رشيقة القوام، أنيقة المظهر.. وتقدم مايس على مضض لمساعدة الراكبة الأخرى الأقل رشاقة، والتي كانت تحاول إخراج نفسها من المقعد الأمامي العميق.

همست أليدا وكأنما تهمس لنفسها:

ـ هذه تايني.. لكن من المرأة الأخرى؟

قال بن بابتسامة خبيثة وهو يستدير ليلحق بأصدقائه:

ـ إنها أمها.. ألم تلتقي بها بعد؟ إنها الأميرة!

* * *

٥ ـ بانتظار قراره

كانت الأميرة غريبة الأطوار، بل من أكثر الناس الذين شاهدتهم أليدا في حياتها غرابة. ويشهد على ذلك شعرها المجعد ذو اللون البرتقالي الشاذ، المكوّم على قمة رأسها بشكل غير منسّق.. إضافة إلى أن سلوكها بدا مهيناً، وهي تنظر عبر أنفها المستقيم المتغطرس إلى مايس تلوح له بإصبع نحيل وهي تراقب الجمع المنسحب نحو الشاطىء:

ـ أيها الولد الشقي.. لقد أقمت حفلة لم تدعني إليها.

أجاب مايس متجهماً:

ـ الأصح أنها حفلة بن.

ـ سوف أكلمه.. تايني؟ تايني! أين كوكو؟

ـ إنه هنا أمي.

مدت تايني يدها إلى السيارة تسحب منها حيواناً أليفاً ذا وجه كروي صغير يرفرف بعينيه.

قالت الأميرة بصوت متأوه، تمد ذراعيها المعروقين:

ـ تعال إلى ماما حبيبي.

قفز القرد نحو الأميرة وحط بارتياح على كتفها، وشبك أصابعه في إحدى خصل شعرها.. أما أليدا فوقفت تنظر بغرابة إلى هذا المنظر غير المألوف.. لكنها سرعان ما لاحظت أن تصرف مايس وتايني كان

عادياً. ربما هما معتادان على غطرسة هذه الطبقة الاجتماعية.. لكن الأفضل لها العودة إلى عملها.

كانت تتجه نحو المنزل حين ناداها مايس:

- أليدا، هلاّ تلطفت بإرشاد الأميرة وتايثي إلى قاعة الرقص الكبرى؟ إنهما هنا لإجراء الترتيبات النهائية لحفلة جمعية الرفق بالحيوان الراقصة.

ثم ابتعد بسرعة يملؤه السرور لإبعاده هذا الهم عن كاهله.. غير أن تايثي كانت تحدق إليه بانزعاج واضح لبقائها في رفقة أمها.. ابتسمت أليدا لهما قائلة:

- من هنا، أرجوكما.

سارت الأميرة خلفها وتايثي في أعقابها كارهة.. فتحت أليدا باباً عريضاً يؤدي إلى قاعة الرقص الكبيرة وتنحت جانباً لتدخلها الأميرة وابنتها.

بدت الأميرة لا تعي أبداً جمال القاعة وبدأت على الفور قياس مكان الاستقبال بخطواتها. وقالت بعناد:

- سينتهي صف الاستقبال هنا.

وأشارت بطرف أصابع قدميها إلى خط وهمي، وأكملت:

- سنستقبل المدعوين أنا، وأنت تايثي، ومايس وبن.. ثم رئيسة جمعية الرفق بالحيوان.. و..

قاطعتها تايثي بخبث:

- يقول بن إنه لن يحضر الحفلة.. فهو يكره الرقص المدروس والعشاء الرسمي.

نظرت إليها الأميرة:

- كلام سخيف.. سيأتي.. فهو سيرغب في رؤيتك ذلك المساء. وإلا فلن أحدد له المقابلة مع الحاكم إذا لم يحضر.

- لكن مايس سيكون هنا.

- طبعاً.. لن يتخلف مايس.. ستكون الحفلة فرصة رائعة لإظهار صوره في الصحف.. والآن جاء دور الزينة.. لقد وعد منسق الزهور بنباتات خضراء مع باقات زهور صفراء وبيضاء تفصلها عشرة أقدام عن بعضها.. أيبدو هذا جذاباً لك عزيزتي؟

- أجل أمي.

وتفحصت أظافرها إظهاراً للسأم. ثم قاست المسافة التي ينبغي أن تفصل الطاولات عن بعضها البعض، وتفحصت منصة الفرقة الموسيقية، ثم قالت:

- أستطيع القول أن الحفلة ستكون جيدة.. الحفلات الراقصة في زانادو عادة تكون ناجحة.. حسناً هل نذهب تايثي، عزيزتي؟

لم يكن سؤالاً.. بل أمراً. مما جعل تايثي ترمق أمها بنظرة كراهية قبل أن تلحق بها.

التفتت الأميرة إلى أليدا الواقفة عند الباب الأمامي قائلة:

- أعتقد أن مايس طلب منك حضور الحفلة. استعدي في الساعة الثامنة تماماً.. يمكنك المساعدة في الإرشاد إلى المقاعد وأشياء أخرى مماثلة.

أكملت طريقها لتحشر نفسها في سيارة تايثي وهي تقول:

- حقاً تايثي عزيزتي.. إذا كنت ستوصليني دائماً فأنا أصرّ على أن تقودي الرولز.. هذه السيارات الصغيرة لا بأس بها لكم أنتم الشباب.. لكن..

صاحت أليدا وقد تذكرت أمراً هاماً:

- انتظري لحظة! متى الحفلة؟

ولأنها صرفت التفكير عن أليدا، كان على الأميرة أن تبقى شاردة الذهن للحظات قبل أن تعي مجدداً من هي أليدا، ثم قالت بازدراء:

- يوم السبت بالطبع.

وقبل أن تتمكن أليدا من قول شيء آخر كانت تابثي قد انطلقت بالسيارة مسرعة.. ورأت أليدا رأس كوكو الصغير يطل من النافذة الخلفية.

السبت..! هذا يصادف غداً!

اقتحمت أليدا مكتب مايس.. فرفع رأسه مجفلاً:

- قالت الأميرة إن عليّ حضور الحفلة الراقصة.. والحفلة تقام مساء الغد! فهل يفترض حقاً أن أحضرها؟

- وهل نسيت دعوتك؟ طبعاً أريدك هناك!

اعترفت:

- لكنني لا أملك لباساً أرتديه، عدا عن كوني لا أعرف أحداً من المدعوّين.. لذلك أفضل أن أبقى في غرفتي وحيدة.

رد بحزم:

- قطعاً لا.. هذه ليست بحجة كافية، ارتدي ذلك الفستان الأحمر الجميل الذي ارتديته ليلة أمس.. وجدي لك زهرة خباز أخرى ضعيها خلف أذنك.. كان تأثيرها ساحراً تماماً.

تنهدت:

- أوه.. لا أريد ارتداء الثوب ذاته.. مع أنني أحب أن أرى قاعة الرقص تعج بالراقصين.. أنا واثقة أنها ستكون جميلة.

قال دونما اكتراث:

- خذي إجازة في الغد إذا أحببت واشتري فستاناً آخر. واحتفظي لي برقصة أو اثنتين.. هل ستفعلين؟

ابتسم لها حاسماً الجدل حول الموضوع، فقابلته بابتسامة حائرة قبل أن تخرج.. بالنسبة إليه حضور حفلة راقصة في زانادو أمر عادي.. لكن بالنسبة إليها ستكون مناسبة نادرة لا تأتي أكثر من مرة في

العمر.

وجدت أليدا مارغريت في المطبخ تقطع الخضار.. أخبرتها بما حدث، واعترفت لها أنها لا تدري ماذا سترتدي.

أجابت مارغريت:

- أنت آنسة أليدا ستبدين جميلة بغض النظر عما ترتدين.

- توقفي عن الإطراء مارغريت.. لو كنت تابثي اوبيرت تراولي، فماذا أرتدي؟

رفعت مارغريت عينيها إلى السماء:

- شكراً لله أنك لست هي.. على أي حال من المتوقع أن تكون السيدات في أوج أناقتهن.. فجدي لنفسك فستاناً جميلاً، وسيتكفل سحرك الطبيعي بما تبقى.

وهي تستدير لتغادر، استدركت مارغريت:

- هل أقدم لك العشاء على صينية في غرفتك؟ لن ينزل السيد مايس إلى العشاء الليلة.. ولقد طلب العشاء باكراً في مكتبه.

سرحت أفكار أليدا نحو بن محاولة معرفة ما يفعله. ثم تذكرت الأصدقاء الذين دعاهم إلى كابينته بعد المظاهرة، وتساءلت عما إذا كان لا يزال مشغولاً بهم. وأحست للحظة بغصة حادة من الندم لأنها لم تقبل دعوته، وقالت:

- سآكل في غرفتي مارغريت.. إلا إذا.. لا.. أحضري لي صينية.

بعد وجبة الطعام المنفردة في غرفتها، تقدمت بتكاسل إلى النافذة، ووقفت تتأمل المحيط.. لم تكن العتمة قد سادت بعد، والمد قادم.. كان الشاطىء هادئاً، لا أثر لحفلة في الكابينة.. لا شك أن ضيوف بن رحلوا إلى بيوتهم.

في هذه الأثناء، وصلت سيارة تابثي الحمراء مسرعة، وأطلقت

الزمور عالياً. صرّت إطارات السيارة وهي تقف مسببة خلفها غمامة من الغبار جعلت أليدا تتراجع إلى خلف الستائر الرقيقة.

صاحت تايثي وهي تطل برأسها من نافذة السيارة:

- مايس! ماي.. يس!

نظرت أليدا حولها.. لم تجد أثراً لمايس. فكرت في الرد على تايثي، لكنها قررت التزام الصمت.

قفزت تايثي من السيارة، ورفعت نفسها على حافة الباب تنادي مجدداً: مايس!

أخيراً انفتح الباب الأمامي، وخاطبت تايثي مارغريت:

- مارغريت.. أخبري مايس إنني هنا.

ثم أضافت متسرّعة:

- لا.. لا أريد الدخول. قولي له فقط إنني هنا.. أسرعي!

أخيراً سمعت أليدا صوت مايس المتعجب:

- تايثي! ماذا تفعلين هنا في هذا الوقت؟

رمت شعرها إلى جانب واحد:

- جئت أصطحبك إلى مرقص ليلي جديد.. هيا بنا.

رد باقتضاب:

- لدي عمل.. ثم نحن لسنا على موعد.

- أوه.. هيا.. مفسد الملذات.. أنت جاد أكثر من اللازم في العمل.. وتحتاج إلى القليل من المرح.

انزلقت في جلستها على مقدمة سيارتها.. ورأت أليدا مايس يبتسم لتايثي..

ابتسم لها مجدداً، إشارة إلى أنه يتحمل نزوة طفلة مزعجة. وقال:

- تايثي.. أنا أجري بعض الحسابات التي يجب أن تنتهي هذا الأسبوع.. وليس لدي وقت..

- سخيف! ماذا تعني بليس لديك وقت؟ كنت تجد دوماً الوقت اللازم لمرافقتي، أتذكر؟ تعال.

مررت يدها على عنقه.

- ألا تريد أن تعرف ماذا قالت لي أمي بشأن تحديد موعد لبن مع الحاكم لبحث أمور زانادو؟ قد تتمكن من إقناعي بقول كل شيء.

نظر مايس إلى المنزل، ثم إلى تايثي.. والحيرة تتملك أفكاره.

- لماذا ترغبين في إخباري مثل هذه الأمور؟ ظننتك في صف بن.

أرخت رأسها إلى الوراء وضحكت:

- أنا إلى جانب «تايثي» على الأرجح.. والآن.. هل أنت قادم أم لا؟

- حسناً.. أنا قادم.

فتحت تايثي الباب:

- أنت ستقود السيارة.. ممكن؟

جلس خلف المقود وهو يقول:

- مع ذلك يجب أن نعود باكراً.. تعرفين أنني لا أستطيع أن أجاريك في الرقص.

أطلقت تايثي ضحكة غير مؤدبة بينما أدار مايس المحرك.. وكانت أليدا لا تزال واقفة خلف النافذة تراقب ما يجري بصمت، وتساءلت حائرة عندما رأت تايثي تضع يدها بلهفة فوق ذراع مايس: خلف من تسعى تايثي.. بن أم مايس؟ إنها مقتنعة أن بن لا يحب تايثي مطلقاً.. لكن مايس، أين هو دوره في هذه الأحجية؟ هل تسمح تايثي لنفسها ببعض العبث الذي لا ضير فيه، أم أن مزاجها أكثر جدية؟ أحست أليدا بالغضب يغلي في عروقها لتفكيرها أن تايثي تستغل زانادو لتعميق الخلاف أكثر بين الأخوين.. بإمكانها هكذا كسب أحدهما حتماً.. لكنها ستدمر زانادو.

ناداها صوت البحر الهادئ ملطفاً من حدة غضبها. فتشت عن ثوب سباحتها وارتدته ثم أخذت روب البحر وأسرعت نحو الشاطىء.

تقدمت إلى البحر حافية القدمين مستمتعة بتسلل الرمال بين أصابعها.. لم يذكرها المحيط بصراعها السيء مع البار.. فتابعت طريقها مطمئنة بين الأمواج المتكسرة بنعومة.

تمددت على ظهرها مستكينة، تاركة المياه المالحة تطفو بها إلى السطح، أحست بالتوتر يتلاشى من جسدها.. حين غاصت الشمس نهائياً وراء أبراج القصر، تركت المحيط بأسف، لتأخذ روبها وتضعه على كتفيها.. وبينما هي تبحث عن حذائها سمعت صوت بن آتياً من ناحية الكابينة:

- يجب أن تكوني أكثر حذراً عندما تسبحين في المحيط.

حاولت أن تضحك بخفة، لكنها كانت مجفلة، وخرجت الضحكة مخنوقة قليلاً.. وسألت:

- منذ متى وأنت تتجسس عليّ؟

- أنا لا أتجسس، بل أراقب. وأحذرك أنه شوهدت أسماك القرش في مكان قريب من هنا.. ألم تسمعي بذلك؟

- لا.. لم أكن أعرف.. لكنها لا تزعج السابحين.. أليس كذلك؟

- أحياناً فقط.. لكن من الحكمة أن تكوني حذرة، خاصة وأننا نعرف بوجودها.. راقبي وجود مثلث مروحي يشق الماء، إذا شاهدت واحداً، أخرجي بسرعة.. فأنا لن أكون موجوداً دائماً لأنقذك.

- وهل ينبغي أن تذكرني دوماً بما جرى؟ ألن تتركني أنسى.. أستطيع تدبير أموري جيداً في المحيط.. شكراً لك!

ابتسم ساخراً:

- أنا واثق من ذلك.

كان هناك بقعة قطران سوداء ملتصقة في أسفل قدمها.. حاولت إزالتها دون جدوى.. فقال بن:

- تأتي هذه البقع من السفن المارة بعيداً، ويحملها الموج إلى الشواطىء.. لدى بعض «التربنتين» في الداخل وهو الدواء الوحيد للخلاص منها.. هل ترغبين في الدخول لإزالتها؟

- ظننت أن أصدقاءك ما زالوا هنا.. أو أنك ذهبت إلى البلدة.

أشار إليها لتلحق به:

- لا.. لا يوجد أحد هنا.. ادخلي.

جلست على كرسي خشبي مرتفع، بينما جاء بعلبة التربنتين وقطعة قماش.. سألته وهي تمسح القطران بالقماشة المبللة بالتربنتين.

- أنت لست مولعاً بحياة الليل؟

- ليس كثيراً.. أفضل تبادل الحديث مع الناس لأعرفهم حق المعرفة.. وهذا لا يتحقق في السهرات الصاخبة.

وقفت أليدا بعد تنظيف قدمها تسير إلى الغرفة التي تحتوي على الرسوم.. أرادت أن تسأله عن عمله.. لكن العديد من الرسامين ممن تعرفهم، لا يستهويهم الحديث عن أعمالهم.. وبدا لها أنه لن يرغب في هذا الأمر. كانت الغرفة مظلمة.. وتساءلت عما إذا كان بالإمكان أن تضيء المصباح.

قال بن من خلفها:

- هيا، افعلي.

أدارت الزر، ونظرت حولها باهتمام بالغ لتجد عدة لوحات مغطاة فوق منصاتها، ما عدا واحدة مواجهة للنور القادم من النافذة الشمالية.. تقدمت أليدا لتتفحصها. كانت رسماً للشاطىء في الصباح الباكر، والشمس المتعددة الألوان منخفضة في الأفق.. كانت الكرة المنيرة ترتفع فوق بحر يترقرق بنعومة نحو شاطىء وردي.. كان

الرسم يثير في النفس إحساساً سحرياً بالشاطىء في اللحظة التي تلي تماماً شروق الشمس.. ووقفت أليدا فاقدة القدرة على النطق معجبة بما ترى.

تقدم بن منها ليقف ويراقب ردة فعلها. كانت متأثرة بالرسم إلى حد الذهول لدرجة أنها مرت بلحظات طويلة أطبق فيها الصمت على المشهد:

- بن.. هذا جميل جداً.. أنت فعلاً تملك موهبة رائعة.

- أنا مسرور برأيك هذا.

- هل لي أن أرى الأخريات؟

- كلها في مراحل مختلفة.

رفع الغطاء عن منصة قريبة، كانت منظراً بحرياً آخر أذاب فيه إحساسه المرهف بالجمال، لكنه لم يكن قد اكتمل.. وقال:

- وهناك هذه اللوحة.

وأراها منظراً ليلياً للبحر.. وأشار إلى لوحات أخرى على الأرض.

- هذه تنتظر تركيب إطار لها.. سأقيم عرضاً منفرداً في معرض محلي في الشهر القادم.

تمتمت أليدا:

- لقد شاهدت الكثير من اللوحات الرائعة طوال حياتي.. وأستطيع أن أقول لك إن هذه مميزة.

ابتسم لها:

- فلتنتشي مجرد منشرد على الشاطىء.. صحيح؟

- لم يكن لدي أية فكرة بالتأكيد.

هز كتفيه:

- الرسم هو حياتي.. لا أستطيع العيش دونه وكل شيء آخر

ثانوي.. ما عدا زانادو طبعاً.

تطلعت أليدا حولها في الغرفة بحثاً عن شيء ما.. لكنها لم تجد ما كانت تسعى إليه.. وقالت مؤنبة:

- بن.. ليس هناك لوحة واحدة لزانادو.

- أشعر أنني قريب جداً منه ولا أستطيع أن أرسمه.. لأنني أريد أن ألتقط فيه الروح.. لا أريد الكلام في هذا.. فلنتكلم في موضوع آخر.

لكن أليدا رفضت التخلي عن الموضوع:

- لا.. إذا كان لأحد أن يرسم زانادو فيجب أن يكون أنت، لأنك تحبه. وإذا كان سيتهدم، فهذا سبب يكفي لأن تبدأ برسمه.. قبل فوات الأوان.

قال بخشونة:

- سيبقى هناك صور فوتوغرافية له.. أنا الآن لا أرسم سوى مناظر البحر.

جادلته بعناد:

- لا ينبغي أن تقيد نفسك في هذا الإطار إذ أن لديك موهبة واضحة.. على أي حال، ألا ترسم الناس؟ الحيوانات؟

- أنا أتناغم أكثر مع الشاطىء في هذه المرحلة في حياتي، ولهذا السبب، كما أعتقد، أحب أن أرسمه.. رسم الناس صعب عليّ.. أستطيع التقاط إحساس منظر لأرض أو لبحر.. أتعمق فيه لأصل إلى قلبه.. ليس الأمر بمثل هذه السهولة مع الناس.. لا يمكن لأحد الوصول إلى قلب البشر.

اعترضت أليدا:

- أوه.. لا بن، أنا واثقة أن هذا غير صحيح.. فأنت لم تجرب بعد.

رد متجهماً:

- أتعتقدين أنني لم أجرب؟ لقد جربت. أوه.. كم جربت.. دون نجاح.. إن الكثيرين ممن حاولت رسمهم لم يبدوا حقيقيين أبداً.. بدوا لي منخشبين وكأنهم الدمى، أو «المانيكان» في واجهة محل.. أنا لا أملك موهبة رسم الناس كبشر.

قالت أليدا بنعومة:

- ربما لم تحاول أن تسبر الغور، وتكتفي بالنظر إلى السطح.

حدق إليها للحظات وعيناه الزرقاوان تخترقان روحها.. وقال باختصار:

- ربما أنت محقة.

توقعت أن يطلب منها الرحيل بعد جدالها في موضوع لا يريحه، لكنه لم يقل شيئاً.. كانت تحس بحرارة وجوده بقربها، واستذكرت ما كان يقصده «بعمل لم ينته بعد» ساعة قالها على متن «كوبلاخان». لكي تخفي ارتباكها، جالت في الغرفة تمرر أصابعها فوق المنحوتة الخشبية غير المكتملة فوق الطاولة، ثم عادت إلى غرفة الجلوس تتفحص عدة أصداف معقدة فوق رف المدفأة..

أخيراً قالت:

- قل لي بن.. كيف تربيت؟ أنت بالتأكيد لم تعش في بالم بيتش طوال طفولتك؟

هز بن رأسه:

- لا.. كان زانادوا لقضاء فرص الربيع بعد الانتهاء من المدرسة الداخلية.. وأحياناً لقضاء عيد الميلاد.. أمضيت معظم شبابي في مدارس مختلفة أتنقل من واحدة إلى أخرى. كانت حياة صعبة.

فكرت أليدا بطفولتها.. فمع أنها تربت وحيدة مع أبيها إلا أنه كان يقضي وقتاً طويلاً معها، ولم يرسلها أبداً إلى مدارس داخلية أو إلى أقارب لهما.. وقالت:

- أستطيع تصور ذلك.

تابع بن:

- أمي كانت امرأة لا تستقر أبداً.. كانت تنفق ثروتها لتوفير المظاهر الملكية لنفسها.. كانت حياتها جولة متصلة من الحفلات.. أما أنا ومايس فقد كنا أمراً ثانوياً بالنسبة إليها.. ومرت علينا أوقات تعيسة جداً.

- لطالما ظننت أن العائلات الثرية توفر لأولادها كل ما يتمنون، لكن أعتقد أن هذا الأمر لا ينطبق عليك.

- لقد نلت كل الأشياء المادية التي أردتها.. أفضل الألعاب.. الثياب الأنيقة الباهظة الثمن.. السيارات السريعة من كل صنف ووصف.. إلى درجة أنني لم أعد أجد متعة أو سلوى في ذلك كله.. كل ما كنت أريده حقاً هو أن أسعد بوجود أمي إلى جانبي لتمنحني بعضاً من حنانها.. لكن هذا لم يحدث أبداً.. أخيراً تركت كل شيء ورائي وانتقلت للسكن هنا.. وانغمست في رسوماتي.. وكما ترين.. أصبحت حاجاتي بسيطة جداً الآن.

قالت أليدا مفكرة:

- أنا آسفة لطفولتك التعيسة بن.. لكنك الآن وقد كبرت وأصبحت تعيش حياتك الخاصة.. غيرت نظرتك إلى الحياة، أليس كذلك؟

هز رأسه إيجاباً، ثم ضحك وبدا محرجاً وكأنه أدرك فجأة أنه كشف الكثير عن نفسه:

- ستحضرين حفلة الرقص غداً، أليس كذلك؟

- أجل.. في الواقع علمت بإقامتها اليوم فقط حين قالت لي الأميرة إن عليّ أن أكون حاضرة.. وذكرت تايتي أنك لن تحضرها.. فهل هذا صحيح؟

تجهم وجه بن، ووقف ليسير نحو النافذة، ينظر ساهماً إلى الليل في الخارج. ثم استدار ليرد بهدوء:

- بالطبع سأكون موجوداً.. لقد تأكدت الأميرة من هذا.

- لقد وعدتك بموعد مع الحاكم إذا حضرت الحفلة.

- وكيف عرفت هذا؟

- سمعت الأميرة تخبره لتايثي ساعة كانتا تلقيان نظرة على قاعة الرقص.. ولم أكن أعرف أنه سرّ.

- سرّ؟ لا.. من المستحيل أن تصان الأسرار هنا..

كانت كلماته لاذعة كالسوط.. فردت أليدا:

- على أي حال، لست من ينشر الأخبار.. لقد خرجت تايثي مع مايس الليلة، وآخر ما سمعته منها هو أنها تريد إعلامه عن أخبار الموعد مع الحاكم.. وقد بدا مايس مهتماً بذلك.

قال بمرارة:

- لا شك أنه سيهتم.. وكان يجب أن أخمن أن تايثي ستلعب بي ضد مايس.. المسكينة، الغبية..

لم تصدق أليدا ما تسمع:

- بكل تأكيد لن تضيع شفقتك عليها! كنت أظنها صديقتك.. لكنها لا تتصرف كصديقة.

- أنت لا تفهمين أليدا.. لقد عرفت تايثي منذ كانت طفلة وساعدتها في حل مشاكلها، والآن تتملكها هذه الفكرة المجنونة أنها تحبني.. ومفهومها عن الحب وماهيته لا يعدو تصور أمها الأميرة عنه.. وهي تستسلم إلى مثل هذه النزوات... أوه.. لا مجال لتفسير نفسية تايثي لك.. وما أرجوه هو ألاّ تفسد الفرص أمام بقاء زانادو.

فكرت أليدا بمساعدة بن لتفادي أي ضرر قد توقعه تايثي بقضيته.. واضح أنه لا يعرف أن أحد الشركاء في مؤسسة كاونت،

جورج سايلور، أصيب في حادثة تزلج قبل أن يوقع عقد البيع.. فهل تخبره؟ أم أنها في هذا ستصبح مذنبة في الانحياز لأخ ضد أخيه؟ إنها لا تزال موظفة عند مايس ويجب أن يكون لديها ولاء الموظف نحوه.. لكن ماذا عن مشاعرها الخاصة ورغبتها في الحفاظ على زانادو؟ أليس لهذا قيمة؟

استدارت إلى بن.. من السهل جداً أن تنقل إليه خبر إصابة جورج سايلور.. لا يتطلب الأمر أكثر من بضع كلمات قد يستفيد منها بن في التأخير..

لكن بن كان يتابع كلامه، وبدت كلماته واثقة مصممة:

- لا يهمني ما ستقوله له عن موعدي مع الحاكم.. لا يستطيع مايس فعل شيء. ولو أن المقابلة لن تتم قبل الأسبوع القادم.. ثم إن مايس ليس الوحيد القادر على التعامل مع أصحاب مؤسسة كاونت.. لقد تحدثت إلى دايفد تاكر اليوم، ولم يؤكد، أو ينفي، ما إذا كان شريكه جورج سايلور، قد وقع عقد البيع أم لا. لقد حاولت الاتصال بسايلور وسأبقى أحاول إلى أن أصل إليه!

تنهدت أليدا ارتياحاً.. وسرّها أن بن يسير في الطريق الصحيح.. وقررت الاستمرار في الصمت على الأقل في الوقت الراهن. لكن ما قاله بن تالياً أثار غضبها:

- لذا إذا كنت من زمرة مايس أليدا، اذهبي وقولي له هذا.. أؤكد لك إنني لا أكترث سواء أخبرته أم لا، لأنني سأعمل جاهداً كي يبقى زانادو سالماً!

أجفلت أليدا للعداء البادي على وجهه:

- ماذا دعوتني؟ من «زمرته»؟

- أجل.. هذا ما أدعو به الفتيات اللواتي يأتين إلى هنا لرؤية أخي.

- وهل تفعل الفتيات هذا حقاً؟ أعني يلاحقن مايس؟

- أجل.. مايس عضو بارز في المجتمع.. وتعرفين هذا. وهذا المنزل شهير أيضاً.. فبين حين وآخر، تحاول فتاة أو أخرى التسلل إلى المنزل ومقابلته.. لكن، وبما أنه نادراً ما يتواجد هنا فأنا من ألتقي بهن، وأبعدهن.

قالت أليدا بغضب وقد بدأت تدرك ما يلمح إليه:

- بالتأكيد أنت لا تعتقد أنني حاولت إغراق نفسي لمجرد الدخول إلى زانادو.

هز كتفيه بغير اكتراث مجيباً:

- من يدري؟ إنها خطة عبقرية.. تصورتك رأيتني أسير على الشاطىء وظننتني مايس، فتظاهرت بالغرق.. لكنني وقفت أنظر إليك حتى ناداني صوت داخلي: هيه! ماذا لو كانت تغرق فعلاً؟ ثم قفزت في المركب وأسرعت لأنقذك.. كان يجب أن أتركك تغرقين.

صدمت أليدا وجُرحت لاتهامه:

- إذن لهذا عاملتني بكراهية! أنت لم تثق أبداً بدوافعي!

- أضيفي أنك كنت بحاجة للعمل، فهذا ما جعل ارتيابي مضاعفاً.. ثم هناك فكرة تراودني مفادها أن مايس زرعك أمامي لأنقذك من المحيط، كي نصبح صديقين، وهذا ما يمكّنك من تقديم التقارير له عن كل ما أخبئه من خطط لإنقاذ زانادو.. هل الأمر على هذه الصورة أليدا؟

- .. أيها.. أيها..

لم تستطع النفوه بنعت كريه بما يكفي ليوضح له رأيها فيه.. وضربت الأرض بقدمها مصدرة صوتاً خفيفاً.

- نعليك عزيزتي..

قدمهما إليها مع انحناءة ساخرة.

- ربما لو ارتديتهما، لتمكنت من التعبير عن نفسك بشكل أفضل.

وازنت نفسها بغضب على حافة المقعد الذي جلست عليه لبرهة الإنقاذ، وارتدت نعليها بينما كان بن يراقبها. ثم قال:

- لدينا عمل لم ينته أليدا.. هل تذكرين؟

نظرت إليه بذهول، فابتسم وقال:

- أكاد أعتقد أنك لست من النوع الذي ينضم إلى «الزمر».. لكن كيف أكون واثقاً؟

مد يده إلى يدها المترددة ليضعها على كتفه.. ويلف ذراعه حول خصرها، ثم قرّب فمه من أذنها ليهمس:

- كيف يمكن أن أكون واثقاً؟

أغمضت عينيها وتركت نفسها تنجرف إلى دوامة المشاعر التي أطلقتها كلماته.. كل ما جرى بينهما بالإمكان أن تنساه وهي بين ذراعيه.

أحست بالحيرة حين أبعد نفسه عنها وقال بهدوء بعيداً عن أي ضغينة:

- لم أقرر بشأنك بعد أليدا..

شعرت بالغيظ يتصاعد داخلها، وفتحت فمها لتحتج لكنه وضع إصبعه السبابة على شفتيها، وهز رأسه محذراً.. انتزعت نفسها منه غاضبة، ووقفت وإحدى يديها على مقبض الباب.

قالت والارتعاش ظاهر في صوتها:

- أنا ذاهبة الآن.

رد ببرود:

- أجل أليدا.. اذهبي.. لكن لا تبتعدي كثيراً.

فخرجت وقد صفقت الباب وراءها إشارة إلى غضبها الشديد.

* * *

٦ ـ بينهما حاجز الشك

كان «وارث آفينيو» الشارع الأنيق للمحلات والمخازن الفخمة المرتفعة الأسعار، أكثر أناقة مما توقعته أليدا. . أطالت الوقوف أمام واجهة بوتيك حيث أعجبها ثوب فضفاض من الدانتيل اليدوي الصنع. . وكان سعره مذهلاً.

عرجت في جولتها على «الصالون» المرتفع الأسعار، حيث رحبت بها بائعة بصوت وديع. . لكنها لم تكن قد وجدت فستاناً يتناسب تماماً مع ذوقها، أو بالأصح مع المال الذي رصدته لهذه الغاية.

نظرت حولها حائرة، وتساءلت في سرها عن المكان الذي تجد فيه مطلبها. ثم رأت واجهة أخرى حجبتها عن الأنظار نبتة نخل في وعاء كبير، خلف الزجاج كومة من الثياب الناعمة. . كانت تقف مرتبكة تتساءل عمّا يناسبها وإذ أطل رأس فتاة من بين كومة الثياب لتقول:

ـ هل تودين لباساً معيناً؟

وكان الرأس لفتاة شرقية صغيرة الجسم لها عينان تشبهان حبات اللوز، وبشرة بلون زهر الخوخ. . وكانت تبتسم ترحيباً بها. . أحست بالأسى على الفتاة وقالت:

ـ حسناً. . أنا. . أجل. . أعتقد هذا.

واضح أن الفتاة كانت تحاول خلق شيء من النظام في الفوضى السائدة في الواجهة، ولم تنجح كثيراً. . لحقت أليدا بها إلى داخل

المحل المعتم. . كان للبوتيك طابع شرقي غريب. .

قالت الفتاة الشرقية وهي تنظر إلى الواجهة بخجل:

ـ إنه محل جديد. . وأنت أول زبونة. . أنا آسفة للفوضى في الواجهة. . لم يتسع لي الوقت لتنظيمها في الصباح.

هزت أليدا رأسها تحاول التظاهر بالتفهم:

ـ أنا أبحث عن فستان لأرتديه في حفلة راقصة. . حفلة أنيقة جداً. . هل لديك شيء مناسب؟

نظرت إلى أليدا لحظات وهي تفكر:

ـ أتعرفين؟ قد أجد لك ما يناسبك تماماً، تعالي معي.

تبعتها أليدا لتجد نفسها في غرفة قياس صغيرة. . ناولتها الفتاة قطعة قماش كبيرة مطوية قائلة:

ـ هذا ساري هندي. . إنه لا يناسب أياً كان. لكن بجسدك النحيل. . حسناً. . فلنجربه.

مررت أليدا أصابعها فوق القماش. . إنه من الحرير الشفاف، مع لمعان خفيف بلون أحمر مرجاني، يحده عند الأطراف رسم زخرفي فضي دقيق. . شهقت: إنه جميل.

ـ وهذا رأيي به أنا كذلك. . فالساري الهندي ليس فستاناً. . إنه قطعة قماش طولها عشرون قدماً تقريباً، وعرضها ثلاثة أقدام. . الطريقة التي يلتف فيها الساري حول الجسم هي التي تجعله قطعة ثياب.

خلعت أليدا ملابسها، وتركت البائعة تلف الحرير حولها. . ثم قالت بلهفة:

ـ ألن تحتاجي إلى دبابيس أو أزرار؟

هزت الفتاة رأسها نفياً:

ـ لا. . فالهنديات لا تستخدمن أية مثبتات. .

أنهت عملها برمي الطرف الأخير من الحرير الناعم فوق رأس

أليدا:

ـ هاك.. ما رأيك؟

فتنت أليدا بصورتها في المرآة فقد كان لون الفوشيا الأحمر الأرجواني يأتلف بشدة مع سواد شعرها، والطيات الملفوفة بفن تزيد من إبراز خصرها..

ـ إنه يعجبني!

ثم تذكرت ميزانيتها، فسألت:

ـ لكن كم ثمنه؟

ـ لك، كأول زبونة، هناك حسم.

وذكرت سعراً تتحمله أليدا بسهولة، وأصبح القرار سهلاً.. سيكون الساري مختلفاً كثيراً عما سترتديه أغلب النساء في الحفلة.. لكنه أنيق حقاً، ومناسب. لذا قالت على الفور:

ـ سآخذه.. لكنني بحاجة إلى تعلم كيف ألفه حولي.

تلا ذلك درس قصير، ثم تمرين لبضع مرات، ووثقت أليدا أنها ستتمكن من تنفيذ الطيات المعقدة بدون صعوبة.

بينما كان ما اشترته يُلف بعناية، سألت أليدا أين يمكن أن تتناول الغداء.

ـ أقترح عليك مطعماً في الهواء الطلق في نهاية هذا الزقاق..

ابتسمت أليدا وودعت الفتاة.

بعد بضع خطوات رأت المطعم وجلست على إحدى الطاولات.

قُدم لها الغداء.. لكنها لم تعره كبير اهتمام.. غير أنها لم تستطع منع نفسها من سماع حديث كان يجري بين سيدتين أنيقتين متوسطتي العمر كانتا تجلسان إلى طاولة قريبة.. ولاحظت أن اسم الأميرة ذكر أكثر من مرة في حديثهما.. قالت المرأة البنية الشعر لرفيقتها:

ـ تعرفين أن ابنتها تايثي مخطوبة تقريباً.

أجفلت أليدا وجلست مستقيمة.. هذه أول مرة تسمع فيها عن خطوبة تايثي.

أجابتها ذات الشعر الرمادي:

ـ أجل.. مخطوبة لبندكت راولي.. إنه محط أنظار الفتيات.. مع أنني شخصياً أفضل مايس.

مالت بنية الشعر إلى الأمام نحو صديقتها:

ـ حسناً.. اسمعي هذا إذن.. تعرفين كيف تتصرف الفتيات الصغيرات إذ يتركن شاباً ليجرين وراء الآخر. سمعت من مونيكا أن الأميرة خططت لإعلان خطوبة تايثي وبن في آخر حفلة أقامتها في نهاية الموسم الاجتماعي.. لكن تصوري من رأت جاكلين بوندر يراقص تايثي في المربع الليلي الجديد؟ إنه مايس! ليس هذا فحسب بل يحكى أيضاً عن خلاف بين مايس وبن حول زانادو!

أخفتت المرأتان صوتيهما إلى الهمس، بحيث لم تعد أليدا تسمع المزيد. حاولت إقناع نفسها أن هذا ليس من شأنها.. وأنها لا تهتم حقاً إذا تزوجت تايثي من بن.. سيكون زواجاً منطقياً يتساوى فيه المركز والمال.. لكن، هناك ما هو أبعد من المنطق في الزواج.. فالزواج يشمل العناية والاهتمام والثقة، إنه شرارة يمكن لها أن تتحول إلى لهيب.. ولم تعد قادرة على البقاء.. لا تريد أكثر من أن تصل إلى غرفتها في زانادو لتختلي بأفكارها.

لكن ما إن أصبحت في غرفتها، حتى تزاحمت أفكارها وراحت تدور في رأسها وكأنها الوحوش الكاسرة داخل القفص.. وتطور الأمر إلى صداع أليم فاستلقت في السرير آملة أن تنام قليلاً قبل موعد الحفلة.. ونامت وقتاً قصيراً.. حين استفاقت، وجدت مارغريت تتسلل بسكون إلى الداخل لتترك طعاماً خفيفاً على طاولتها.. تناولت القليل ثم أدارت الماء في المغطس لتستحم.. لكن الحمام هذه المرة

لم ينعشها.. وخرجت من المغطس المريح تحس بالإرهاق كما كانت قبلاً.

قالت لصورتها في المرآة:

ـ هذه سخافة.. ستحضرين حفلة راقصة في زانادو! وهذا يتطلب أن تكوني في مزاج جيد!

لكن صورتها نظرت إليها رافضة الابتسام.

أخذت تلف الساري ببطء متذكرة التعليمات.. وانتعش قلبها لأن الثوب بدا رائعاً على جسمها.. لكن ماذا ستفعل بشعرها؟

مشطته بالفرشاة حتى لمع كأنه الآبنوس المصقول. ثم قررت أن أفضل ما يبدو، هو تركه مسترسلاً على كتفها الأيسر، وتثبيته إلى الخلف عند كتفها الأيمن.. كانت تبحث عن مشط مثبّت لتشبكه حين قُرع الباب.

قالت مارغريت:

ـ آنسة أليدا.. أحضرت شيئاً لك.. قلت إن لا ألماس لديك لذا جعلت كالب يأتيك بمجوهرات من حديقته.

وأعطتها باقة من أزهار الكاميليا البيضاء.

تقبلت الزهور، وعانقت مارغريت بذراعها الأخرى وقالت بامتنان:

ـ شكراً جزيلاً لك مارغريت.

ـ يجب الآن أن أعود، فالطابق الأرضي يبدو كبيت مجانين..

وقفت أليدا أمام المرآة واختارت زهرة وحيدة مكتملة ثبتتها بأمان فوق أذنها اليمنى.

وضعت طبقة أحمر شفاه خفيفة، فوق بشرتها المسمرّة، ولمسة ظلال للعيون، وأصبحت جاهزة.. لم تكن كلمة جميلة كافية لوصفها، بل الأصح أنها كانت مذهلة.. وتأثيرها لم يكن عادياً.

ولاحظت وهي تمر بالساعة الكبيرة في الردهة أنها متأخرة لبضع دقائق، وسمعت القهقهات تتصاعد فوق السلم الحجري.. نزلت إلى الأسفل بحذر تتطلع بين الغرباء علها تجد وجهاً مألوفاً.

حين اقتربت بما يكفي لترى صف الاستقبال، لمحت تايثي.. ولامست أصابع باردة قلبها لرؤية بن يقف إلى جانبها ينحني إليها ليسمع كلماتها.. انجرفت دون إرادة منها وسط مجموعة كانت تدخل من باب قاعة الرقص، لتجد نفسها تقف في مواجهة صف الاستقبال.

واجهت أولاً الأميرة التي كان كوكو يرافقها يطوقه المزين بالمجوهرات ويجلس على كتفها.. لكن الأميرة فشلت في التعرف إليها، تجاوزت الأميرة إلى تايثي التي رمقتها بنظرات متعالية فيها الدهشة والحسد في آن معاً.. كزّمها مايس بمصافحة حارة وقرّبها منه ليهمس:

ـ احتفظي لي ببضع رقصات.. ألن تفعلي؟

ثم أصبحت يدها الصغيرة في يد بن، وقبل أن تفكر بأي شيء، كان يقودها بعيداً عن المستقبلين ليدخل بها إلى باحة الرقص.. كان راقصاً رشيقاً بشكل غريب وتركت أليدا نفسها دون عناء تنجرف مع نغمات الأوركسترا.

رقصا معاً عدة خطوات قبل أن ترفع دونما إرادة عينيها إليه، لتجده ينظر إليها بابتسامة ممازحة. فسألت بحدة:

ـ ألم تقرر شيئاً بشأني بعد؟

رفع رأسه إلى الخلف ضاحكاً مما أثار الغرابة في وجوه عدد من الراقصين.

ـ لا.. لكن لو أنك من تلك «الزمر» لكنت أول من تنجح في الوصول إلى حفلة راقصة في زانادو.. وهذا إنجاز لهم.. حسب رأيي.

وضحك ثانية.

أحست أليدا بالتوتر من كلماته.. لكن سخطها ضعف حين شدها بن إليه.

ـ تبدين جميلة جداً الليلة.. ألا يمكن أن نعقد هدنة؟

أحست أليدا بحاجة لصديق، وبدا بن متشوقاً للمصالحة، فوافقت:

ـ حسن جداً.. هدنة!

ضمها بشدة أكثر ودار بها عدة دورات تقطع الأنفاس. وقالت له:

ـ أنت راقص بارع.

ـ أنا لا أقصد إظهار مهارتي.. بل أحاول فقط الهرب من الأميرة ولا يبدو أنني نجحت.

رأت أليدا أن الأميرة وصلت إليهما وقالت متناسية اسم أليدا:

ـ آنسة.. آه..

قال بن: پرايس.

ـ آنسة پرايس.. توقعت منك أن تساعدني الضيوف في إيجاد طاولاتهم.. هذه لائحة بالطاولات المحجوزة..

قال بن بنعومة: كلام هراء..

وأخذ أليدا بين ذراعيه مجدداً:

ـ الآنسة پرايس ترقص معي.

ودار بها بعيداً رغم احتجاجات الأميرة الساخطة.

قالت له أليدا:

ـ السبب الوحيد الذي دعتني لأجله هو أن أساعد في إرشاد الناس إلى أماكنهم.

ـ فلتفعل تايثي هذا.. ستكونين ضيفتي.. على أي حال أنا من المضيفين.

استرخت بين ذراعيه وبدأت تتمتع بالرقص.. وخلال الرقصة الثانية قاطع مايس أخاه ليراقص أليدا، قائلاً:

ـ ظننت أنني طلبت منك الاحتفاظ ببضع رقصات لي.

ابتسمت أليدا له وبقيت صامتة.. فاتهام بن إياها جعلها مرتبكة مع مايس، خاصة وأن بن يراقبهما.. ولسوف تُبعد ارتياب بن بمعاملة مايس على أنه رب عملها لا أكثر، بينما تحافظ على مسافة بينهما.

سرعان ما قاطعهما صديق لمايس، ثم صديق لبن، ووجدت أليدا نفسها تمر من رجل إلى رجل في دورات رقص سببت لها دواراً.. أجالت نظرها في حلبة الرقص دون جدوى آملة أن ترى بن، لكنه اختفى. حين وجدته في النهاية توسلت إليه أن يخرجها من حلبة الرقص.

قادها إلى طاولة في الرواق المشرف على حلبة الرقص.. حيث بدت قاعة الرقص الكبيرة في أوج مجدها.. بينما كان وهج مئات الشموع يضيء المكان، يُظهر جمال السقف المحفور بمهارة، وينعكس متلألئاً على الثريات الكريستالية.

تمشيا نحو الأبواب الزجاجية ليخرجا إلى الشرفة.. كانت القناطر المليئة بالزهور المتعرشة تعطي إطاراً خلاباً لمنظر البركة المضاءة..

كان هناك غيرهما يتمشى في الفناء، يتحدث ويبدي الإعجاب بقاعة الرقص.

حين أنهيا شرابهما، أعادها بن إلى حلبة الرقص.. حين اقتربا من الأبواب، ترنحت أليدا وكادت تقع حين رأت مايس وتايثي في باحة الرقص متعانقين بانسجام تام.

رآهما بن أيضاً.. وأحست أليدا بقبضته تشتد على ذراعها وقال بازدراء:

ـ زوج مدهل.. أليس كذلك؟

تذكرت أليدا الحديث الذي سمعته في المطعم، وأحست باندفاع مفاجيء لتسأله ما إذا كان على وشك إعلان خطوبته على تايثي.. لكنه كان يدفعها إلى الأمام عبر الجمع، ولم تتح لها فرصة السؤال.

قال:

ـ دعينا نريهم ما هو الرقص.

مرة أخرى وجدت أليدا نفسها تدور دون جهد في دائرة ذراعيه.. وفكرت ببؤس: لو أن بن يحاول أن يجعل تايثي تغار، فهذه هي الطريقة.. واستدارا قرب تايثي ومايس بخطوات مدروسة مع أن الأخيرين بدوا غير مهتمين بهما. وضعت أليدا كل تركيزها في اللحاق بخطوات بن.. فلو أنها توقفت لحظة لتفكر كيف يستغلها بن، لتعثرت وسببت الإحراج لكليهما.

أخيراً حلت الرحمة الإلهية وسكتت الموسيقى.. قاد بن أليدا عبر أحد الأبواب الزجاجية قائلاً:

ـ دعينا نخرج لنتنشق الهواء المنعش.

من مكان ما خلفهما سمعت أليدا صوت تايثي:

ـ بن! ألن ترقص معي؟

استدارت لتشاهد تايثي تتقدم نحوهما، فخطت خطوة مترددة نحو الرواق لكن بن الذي كان يمسكها بذراعها رفض تركها.. وقال بأدب:

ـ تايثي.. نادراً ما رأيتك الليلة.. لسوء الحظ، كل رقصاتي محجوزة.

اتسعت عينا تايثي الخضراوان، وأخذت تتصرف وكأن أليدا غير موجودة: كلها..؟

ـ أجل.. ثم إنك تعرفين أليدا، أليس كذلك؟

وأجبر تايثي على الاعتراف بوجود أليدا.. ومررت تايثي نظراتها على وجه أليدا، شعرها، والساري القضي الإطار.. وقالت ببرود:

ـ بلى.. لقد التقينا.

واضح أنها لم تكن سعيدة لاضطرارها إلى الاعتراف بمعرفة أليدا.. وبابتسامة مذهلة لبن، وضعت يدها على ذراعه لتهمس بصوت أجش مثير:

ـ أراك فيما بعد.

كان الموقف سخيفاً، ورغم ذلك لم تستطع أليدا سوى أن تشعر بالانزعاج من عجرفة تايثي.. لكنها دهشت حين لف بن ذراعاً مطمئنة حول خصرها، وقادها نحو الطاولة هامساً:

ـ لا تدعيها تؤثر عليك.. أعرف بأنها لا تتفق كثيراً مع النساء.. وخاصة الجميلات.

منذ لحظات كانت مقتنعة أنه يحاول دفع تايثي إلى الغيرة.. لكنه الآن يُبدي التعاطف معها.. وبدت تايثي، المستغرقة مجدداً في الرقص مع مايس، ساخطة تماماً من تصرفات بن معها.. ربما تستخدم مايس لمحاولة إثارة غيرة بن! أليدا كانت معتادة على عالم الناس فيه صادقون، صريحون في مشاعرهم.. ولم تكن مهيأة للتعامل مع ظروف تتغير بسرعة الرمال تحت أمواج المد.

أغمضت عينيها في محاولة لطرد الإحساس بالألم المتصاعد داخل معدتها.. وفكرت أن بضع لحظات تقضيها منفردة قد تساعدها في استعادة رباطة جأشها.. فاعتذرت متجهة إلى غرفة السيدات.. في الخارج، وجدت نفسها عالقة وسط حشد من الضيوف المتأخرين في الوصول..

تفاجأت حين وجدت الأميرة تقف أمامها مباشرة، في ثوب رمادي من الساتان مرصع بحبات اللؤلؤ والماس المزيفة.. كان على رأسها ذي الشعر الحريري اللون، تاج الماسي صغير، وكوكو يتعلق بعنقها النحيل.

قالت امرأة كانت تقف قرب الأميرة:

ـ رأيت بن يرقص مع فتاة جميلة ذات شعر أسود، ترتدي الساري.. فمن تكون؟

قالت الأميرة بصوت رنان واضح:

ـ مجرد نكرة! موظفة صغيرة تعمل لمايس.. حتى أنها ليست من طبقتنا!

كان كلامها ينم عن ازدراء واضح.

أحست أليدا بدموع الغضب تتصاعد إلى عينيها، لكنها أجبرت نفسها على البقاء هادئة.. فكرت في الهرب، في الابتعاد قدر ما تستطيع عن هذه المرأة الكريهة.. وتصاعد شعور بالذعر إلى حلقها، وكادت تصرخ.

رأت فسحة بين الجمع.. وبدأت تندفع نحوها دون أن ترى، عيناها مغرورقتان بالدموع.. وكان هناك ممر صغير نحو الباب، فتسللت منه.

سد عليها الطريق رجل مسن طويل تعلو رأسه هالة شعر أبيض فقالت محاولة تجاوزه: عفواً..

لمعت عيناه تفهماً، ووضع يداً لطيفة على كتفها:

ـ سمعت ما قالت.. يجب ألا تصغي إليها.

لاحظت أليدا أنها محط أنظار الكثيرين، فلم تعد تحتمل البقاء.. بالرغم من أن هذا الرجل يبدو لطيفاً ومهذباً إلا أن الحفلة أفسدت بالنسبة إليها.

قال مجدداً وبنعومة:

ـ لا تهتمي.. عودي معي إلى قاعة الرقص.

شعرت أليدا بالدفء يغمر قلبها مجدداً جزاء وقوفه إلى جانبها، لكنها هزت رأسها رافضة:

ـ أنا.. أنا.. لا أستطيع.

تملصت من قبضته واتجهت رأساً إلى الطريق، حتى أن سيارة مرسيدس كادت تصدمها.. لكنها لم تكترث لاعتراض السائق الساخط، بل اندفعت راكضة من أمام النافورة متجهة إلى أقرب مكان تختبىء فيه.. بستان البرتقال.

توقفت أمام صف من الأشجار لتلتقط أنفاسها. كان من المريح لها أن تختلي بنفسها بعد سماع التشهير العلني بها على لسان الأميرة. حين هدأ روعها أصبحت أكثر ثقة بأنها لن تستطيع العودة إلى الحفلة ثانية.

سارت دونما هدف نحو السلم الموصل إلى الشاطىء، ونزلت غير عابئة ما إذا كان الرمل المبلل سيفسد خف الرقص الرقيق.. كل ما تريده الآن هو أن تبقى وحدها بعيدة عن الناس وصوت الأميرة الحاد المزعج.

سارت فوق الرمال ببطء.. وقلبها يعتصر ألماً لما سمعته في الردهة الخارجية، فوضعت كفها فوق صدرها كأنها تحاول أن تحتوي ذلك الألم. وتنهدت مدركة أن وقتاً طويلاً سيلزمها حتى تبرأ من الجرح الذي أصاب كرامتها.

لم تعرف كم سارت من مسافة أو استغرقت من وقت، لكن قدميها بدأتا بالتعب فعادت أدراجها إلى زانادو.

ما إن سارت حوالى منتصف الطريق حتى لمحت شخصاً جالساً على قطعة خشب كبيرة جرفها البحر إلى الشاطىء وراء خط المد.. وهي تقترب، عرفت أنه بن.

قال محيياً: أليدا.

ـ أوه.. بن هذا أنت.

أحست بالغباء كونها لم تودعه حين هربت، ولا شك أنه تساءل

عما حدث لها.

ـ لقد رأيتك تهربين من الحفلة.. وقال لي تشارلز والترايت إنك كنت منزعجة جداً.. وظننت أن بمقدوري فعل أي شيء لك.

ـ تشارلز والترايت؟ أهو الرجل المسن ذو الشعر الأبيض؟

ـ أجل.. إنه صديق لي ولزانادو.. هل أنت مستعدة للعودة؟

هزت رأسها:

ـ لا أريد العودة.

تحرك فوق جذع الشجرة مفسحاً لها مكاناً إلى جانبه.. فقالت:

ـ آسفة لانسحابي من الحفلة دون إخبارك.. كنت مضطرة للخروج من هناك بأسرع ما يمكن.

ـ أخبرني تشارلز عن مشكلتك مع الأميرة.. ماذا قالت حتى أغضبتك؟

ـ مجرد.. أشياء.. لم تكن عادلة، ما كان يجب أن تقولها.

ـ الحياة ليست عادلة أبداً أليدا.. والأميرة تقول أشياء لا يجب أن تقولها منذ عرفتها.. والمؤسف أن لا أحد يحاسبها. ولقد قررت منذ زمن بعيد ألا أدعها تؤلمني.. إنها لا تستحق أن تتألم بسببها.. وتعرفين هذا.

صمتت أليدا تستوعب ما قاله بن.. قالت في سرها: إنه محق، فابتسمت.. قال بن بإعجاب:

ـ هكذا أفضل.

لف ذراعه على كتفيها مواسياً، يشدها إليه.. واستراحت أليدا لحركته، جلسا صامتين، يراقبان الممر البرّاق الذي رسمه القمر فوق صفحة المحيط الساكنة.

كانت أليدا مسترسلة في صمتها حين قال بن:

ـ ليس من سبب يدعونا إلى الجلوس هنا في الهواء الرطب.. أنت

لا تريدين العودة إلى زانادو، حسناً، فلنعد إلى الكابينة.

ـ وماذا عنك؟ ستفوتك الحفلة.

ضحك:

ـ بالنسبة إلي، أنا سعيد للهرب منها.. لم أكن أريد حضورها أصلاً.

سارا يداً بيد نحو الكابينة.. كان هناك نسيم بارد قد بدأ يتحرك، يضم الساري أكثر حول أليدا.. التفتت إليه لترى في عينيه نظرة غريبة، إنه يحدق إلى وجهها متعجباً، فحاولت التعليق بخفة.. لكنها تراجعت لرؤية الجدية في تعابير وجهه.

قال، وكانا يقفان بمواجهة باب الكابينة:

ـ وجدتها! انتظري هنا.. سأعود حالاً.

ـ بن..

ـ لا تتحركي.

ودخل بسرعة إلى الكابينة.. وقفت أليدا حائرة إلى أن عاد.. كان يحمل ورقة رسم كبيرة.. وبدأ يرسم، يده تتحرك بسرعة فوق الورق أما نور القمر فكان يرخي بظلال من الإثارة فوق المنظر كله.

سألته:

ـ ماذا تفعل؟

ـ الطريقة التي تقفين فيها.. نور القمر على شعرك.. الألم الظاهر في عينيك..

كان يبدو مسحوراً، مصمماً على التقاط ما يريد التقاطه.. ثم جذبها نحو الباب.. في الداخل، أصرّ على أن تجلس فوق كرسي مرتفع، بينما راح يكمل رسمه.. بعد أن انتهى، كانت الأرض مغطاة بأوراق عدة من الرسوم التي رسمت بخفة.. حين وضع دفتر الرسم من يده، نزلت أليدا عن الكرسي المرتفع، وبدأت تجمع الأوراق.. ثم

صاحت:

ـ بن.. هذه جيدة.. جيدة جداً.

راقب ردة فعلها تجاه الرسومات بحذر، وهز رأسه:

ـ وكأن شيئاً تحرك في داخلي حين رأيتك على هذه الحال. المهم أنه لدي هنا ما يكفي من رسومات توضيحية لأشكل منها لوحة مكتملة.

ـ لكنني لا أظنها رسوماً تشبهني.

ـ ستبدو كما كنت تبدين في تلك اللحظات.. ولو أني أستطيع التقاط الألم فقط في عينيك حين أرسمك...

لم يكمل جملته.. وبدا لها أن ليس في العالم أجمل من أن تنضم إلى ذراعيه.. أن تسمح لحماسته حول رسوماتها أن تغسل عنها مسحة الألم التي خلفتها كلمات الأميرة الخشنة الخالية من الإحساس. وقبل أن تدرك ما يحصل كان يحتويها بشوق، ليجتاحها مدٌ من المشاعر الجياشة.. أحست بذراعيها تنسللان طوعاً حوله، لكنها كانت تعرف أنه ما زال يرتاب فيها.. ما زال يعتقد أنها متآمرة مع مايس.. ريبته كانت كالحاجز بينهما.. وطالما أنه يشك في دوافع وجودها في زانادو لن تستطيع أبداً الاستسلام لحبه.

أبعدت نفسها بلطف من بين ذراعيه، وتركها بالتدريج بناء لإلحاحها.. توجهت بحذر إلى الباب، لا تريد أن تفضح شوقها إليه بالبقاء إلى جانبه.. أمال رأسه إلى جانب واحد وابتسم كأنه محتار:

ـ ما الأمر أليدا؟ ظننت أننا عقدنا معاهدة الليلة؟

رفعت أليدا قامتها.. حين تكلمت لم يرتجف صوتها:

ـ كانت مجرد هدنة.. بن.. وليس وثيقة استسلام.

ثم تسللت مسرعة نحو أنوار زانادو.. المضاء للمرة الأخيرة قبل أن يدخل الظلام إلى الأبد.

* * *

٧ ـ حب لا تريده

لم يكن الصباح في زانادو، بعد تلك الحفلة الليلة، يختلف عما يكون في أي منزل آخر.. حيث كان فريق التنظيف يدور في قاعة الرقص الكبيرة، وفي المطبخ كانت مارغريت تعيد الأواني والأدوات المتكومة إلى فوق رأسها، إلى مكانها.

راقبت أليدا الفوضى، وبداها على خصرها.

ـ هل هناك فرصة لتناول الفطور؟ أم أن هذا مستحيل؟

نزلت مارغريت عن مقعد خشبي مرتفع، ومسحت يديها بمئزرها:

ـ الفطور.. أجل.. لكن لست أدري أين ستأكلين.

صمتت قليلاً مفكرة ثم ابتسمت:

ـ لدي فكرة.. أخرجي في نزهة.. أجل؟

ـ سأذهب في نزهة.. أجل! في الواقع لم أر من پالم بيتش شيئاً يذكر.. ربما أجد دراجة هنا..؟

ـ يحتفظ كالب بدراجة في الكاراج للسيد بن.. بإمكانك استخدامها.. لماذا لا تذهبين إلى الكاراج لتتفحصيها، بينما أحضرّ لك سلة نزهات؟

وجدت الدراجة خفيفة الوزن، سريعة، أعجبتها كثيراً. وعادت لتجد مارغريت تقفل حاوية صغيرة. هكذا اندفعت بعيداً عن زانادو متجهة إلى ممر الدراجات الشهير في پالم بيتش.

مرت بصف طويل من المباني المرتفعة.. كان رياضيو الصباح يركضون في ممر للمشاة ملحق بالشاطىء.. حين اقتربت من الجسر الذي يقطع «لايك وارث» رأت أن ممر الدراجات المعبد، يسير بمحاذاة المياه الزرقاء الساكنة.

لم يكن هناك راكبو دراجات غيرها في الممر.. وهذا ما جعلها تستمتع أكثر في جولتها.. كان الجو عابقاً برائحة الملح، والشمس تلسع ظهرها، توقفت عند مقعد خشبي مواجه للخليج.. أعجبها المكان بهدوئه وخلوه من البشر، فاختارته لتتناول فيه فطورها. وقررت أن تجلس على الأرض وتضع الطعام على المقعد الخشبي.

فتحت السلة لتجد قطعة قماش رقيقة مضلعة فرشتها فوق المقعد.. ثم وزعت الطعام فوقها، وصبت عصير برتقال طازج من إبريق عازل.

بعد وجبة الفطور أحست بالشبع والارتياح، فأغمضت عينيها وأسندت ظهرها إلى المقعد، تتنعم بدفء الشمس.

قال لها صوت:

ـ آه.. أنت أفضل حالاً الآن كما أرى.

ففتحت عينيها.. وجدت رجلاً مسناً بهالة شعر بيضاء، ينحني أمامها.. لم تجد صعوبة في تذكره، إنه تشارلز والترايت الذي حاول مساعدتها ليلة أمس في الحفلة، صديق زانادو كما قال بن.

ابتسمت له بارتباك ورفعت يدها تغطي عينيها من وهج الشمس.

قال:

ـ أتسمحين لي بالانضمام إليك؟ أنا أمارس رياضة المشي الصباحية.. لكنني أحياناً أتوقف لأرتاح.

ـ أجل.. تفضل.. يجب أن أسألك الصفح عن تصرفي غير اللائق ليلة أمس.. لا شك أنني بدوت مثل ساندريلا الهاربة من الحفلة

الراقصة.

ضحك الرجل المسن:

ـ ربما.. ثم إنني أرسلت الأمير الوسيم ليفتش عنك.. فهل وجدك؟

ردت بخفة:

ـ أجل، لكن الحذاء الزجاجي لم يناسب قدمي.

وابتسم تشارلز والترايت.

ـ أرى أنك لست جميلة فقط.. بل جريئة كذلك. من الأفضل لبن أن يجد حذاءً زجاجياً آخر يناسبك.. آه، كدت أنسى، بما أننا لم نتعارف رسمياً يجب أن أقدم نفسي.. أنا تشارلز والترايت.. وأنت كما عرفت أليدا پرايس.

ـ أنا سعيدة للفرصة المتاحة لي لأظهر لك أنني لست حمقاء طائشة كما بدوت بالأمس.

ـ كان معك كل الحق في ذلك الإحساس، فالأميرة غالباً ما تتمادى في الاستهتار بمشاعر الآخرين.

لم تعلق فقد قررت تبني أسلوب بن في تجاهل سلاطة لسان الأميرة.. وأكمل تشارلز:

ـ أرجو ألا تعممي حكمك على الأميرة ليشملنا جميعاً، واعلمي أن معظمنا أشخاص طيبون في بالم بيتش.. أخبريني أليدا، أليديك وقت فراغ هذا الصباح؟ أريدك أن تأتي معي إلى منزلي.

أعجبت أليدا بتشارلز.. وظنت أنه من الممتع حقاً قضاء بعض الوقت معه، لكن من الممكن أن يحتاجوا إلى مساعدتها في زانادو.. فبدأت تقول مترددة:

ـ حسناً.. أنا..

ـ لاطفي رجلاً مسناً أليدا.. ثم إن لدي شيء مثير للاهتمام أريك

إياه.

قررت أليدا الذهاب معه وذلك رغم شكها بأن تكون هذه دعابة..

فأعادت ترتيب سلة النزهة، ووضعتها فوق الدراجة، ثم جرّتها إلى جانب تشارلز، تكيف خطواتها مع خطواته البطيئة.. بعد مسافة قصيرة وصلا قرب سياج مرتفع.. عند زاويته بوابة عالية.

أشار تشارلز إليها لتدخل طالباً منها أن تسند دراجتها إلى جذع شجرة.. أمسك يدها يقودها إلى ممر مرصوف بالحصى، تتدلى فوقه مراوح النخيل الخضراء، الرشيقة.. لمحت أليدا بركة صغيرة من وراء ستار من النباتات الشوكية، وسمعت سقسقة الماء فوق الصخور.

بعد لحظة، رأت قمة مستنبت يرتفع فوق الأشجار وتوقف تشارلز عند باب، ليفتحه.

كاد المنظر يخطف أنفاس أليدا.. المستنبت الزجاجي كان ممتلئاً بآلاف النباتات المزهرة من كل نوع وجنس ولون وحجم!

تنفست بذهول:

ـ كم هي جميلة! لم أرَ في حياتي شيئاً كهذا.

ـ لقد تقاعدت في بالم بيتش منذ خمس وعشرين سنة. اشتريت يوماً نبتة «أوركايديا» وحيدة.. لمجرد الفضول.. وأحببتها فاشتريت واحدة أخرى، ثم بنيت بيتاً زجاجياً صغيراً للاستنبات. وهذا مكّنني من الحصول على مزيد منها.. حتى أصبح لدي أربعة مستنبتات، وخمسة آلاف نوع من «الأوركاديا»..

سارا معاً عبر المجال الأخاذ للمستنبت.

ثم دخلا دائرة معزولة من الأشجار، خرجا منها إلى بركة شاهدتها أليدا من الممر.. شاهدت عدة بطات بيضاء تسبح بوقار على سطحها، وكان بالإمكان رؤية السمك الذهبي هنا وهناك يلمع تحت أشعة الشمس.

جلسا حول طاولة قديمة، مصنوعة من جذع شجرة سرو كانت تقف عند طرف البركة، أخرج تشارلز عدة قطع خبز من جيبه وأعطى بعضها لأليدا.. ثم أخذا يقطعان الخبز ويرميانه في الماء، حيث كانت البطات تلتقطه بسرعة.. ما هي إلا لحظات حتى ظهرت فتاة سوداء العينين بثياب خادمة من مكان غامض من قلب الشجيرات الشائكة، وتركت لهما صينية شاي مثلج، وقطع كيك صغيرة على الطاولة.. ثم اختفت بالسرعة التي ظهرت فيها.

بعد أن انتهى الخبز، تجاهلت أليدا وتشارلز زعيق البط، واستقرا في مقعديهما يراقبان المياه تتدفق من شلال صناعي صغير، وتتناثر رذاذاً في البركة تحته.

قالت أليدا مبدية أسفها:

ـ كان هذا رائعاً.. كنت بحاجة إلى الابتعاد عن زانادو قليلاً.

ـ يُفهم من كلامك أنك مأسورة في زانادو.. أو متورطة كثيراً في مشاكل بن.

إنه محق في ظنه، هذا ما فكرت فيه أليدا، ثم قالت:

ـ لكنني لا أستطيع منع نفسي من حب زانادو، والرغبة في إنقاذه.

ـ أفهم هذا.. كل من يحب زانادو يشعر بذلك. لكن لا تقلقي.. لدى بن عدة بدائل يمكن أن يجربها.. وأنا لست مقتنعاً بعد بأن زانادو يستحق الوجود.

ـ أتعرف أن بن لا يثق بي وأنه يظن أن مايس جاء بي إلى زانادو لأكسب صداقة أخيه كي أنقل إليه ما ينوي فعله؟

هز تشارلز رأسه:

ـ قال لي بن شيئاً من هذا ليلة أمس.. ولقد نويت أن أقول له إنك فوق الشبهات، إذا كان هذا يريحك.. فأنا أرى بلا ريب أنك تحبين زانادو

أحست بامتنان لثقته فيها:

ـ شكراً تشارلز.

تابع مفكراً:

ـ أتعلمين.. إن ارتياب بن يمن حوله خارج عن إرادته، إذ إنه عانى الكثير وعاش طفولة تعيسة، وهو الآن على خلاف مع أخيه.. ولا تنسي أنه فنان، فنان ممتاز، وله مزاجية الفنانين.

ـ لا شك عندي أنه فنان ممتاز.. لقد رأيت بعضاً من رسوماته التي تركت عندي تأثيراً كبيراً نادراً ما شعرت بمثله.

ـ لقد اشتريت بعضاً منها. أنا وهو نتشارك اهتماماً بالفن والأنتيكات، وأحب أن أستثمر مالي مع فنانين سينالون الشهرة يوماً.

قالت باقتناع:

ـ بن سيكون مشهوراً.. لا ريب في ذلك.

جلسا برهة بهدوء يراقبان جمال الحديقة.. قالت أليدا:

ـ يجب أن أذهب الآن.. لقد أمضيت وقتاً جميلاً.

ـ سأرافقك حتى البوابة.

عادت إلى زانادو والسعادة تغمر قلبها. لم يكن التنظيف قد انتهى، فجلست مستقرة في هدوء حديقة المنحوتات تعرّض نفسها لأشعة الشمس.. حملت معها كتاباً ومنشفة فرشتها على إحدى الدرجات الحجرية العريضة.

كان أمامها منحوتة رخامية مكتوب عليها أنها من صنع «بولكا» ونوت أن تدرسها.. لكنها سمعت طقطقة قفل الباب وراءها.

قال مايس:

ـ ها أنت هنا.

التفتت إليه فوراً، وغطت عينيها من وهج الشمس المنعكس على الجدار الأبيض.

ـ لم أكن أعرف أنك تبحث عني.

ـ كنت أرغب في وداعك قبل أن أسافر.

ـ وهل أنت مسافر اليوم؟

ـ سأذهب إلى المطار بعد نصف ساعة.. مارغريت توضب لي حقيبتي الآن.

جلس قربها على الجدار المنخفض.. وأكمل حديثه:

ـ لقد افتقدتك ليلة أمس.

عادت بها الذاكرة إلى الأميرة وهروبها المتسرع، وتساءلت ماذا سمع مايس:

ـ ما ظننت أنك ستلاحظ أنني رحلت.

ـ ألاحظ؟ بالطبع لاحظت.. أردت الرقص معك.. لقد أحسست أنني خدعت لما رأيتك تمضين وقتك مع أخي.

أشاحت نظرها عن عينيه الحادتين بارتباك. في الأيام القليلة الماضية، كانت مشاعرها في عذاب مستمر حتى أنها كادت تتجاهل اهتمام مايس بها.. في الواقع، ظنت أن تقربه منها لم يكن جاداً.. مع ذلك، ها هو الآن يحاول إعادة علاقتهما.. تلك العلاقة التي لا تريد لها أن تنمو وتكبر لسبب لم تفهمه، أو بالأحرى تحاول تجاهله.

قال:

ـ سأغيب بضعة أيام.. بإمكانك متابعة عملك كالعادة. أنا مسرور جداً لما أنجزته حتى الآن.. وأفكر حين أعود أن أبعدك عن لوحة الكتابة.

شعرت بشيء ما في داخلها يدفعها لأن تتمرد، إنه لا يقيم وزناً لرأيه، ويعتبر قبولها أمراً مسلّماً به.. فهزت رأسها نفياً:

ـ مايس.. أنا لا أظن...

ـ هذا صحيح.. لا تظني شيئاً.. حين أعود من آسين، سوف

نمضي معاً وقتاً لن تنسيه أبداً.. سأصطحبك إلى الرقص، وإلى أفخم المطاعم.. سأشتري لك المجوهرات.. لكن الوقت لا يتسع للكلام عن ذلك الآن.

نظر إلى ساعته:

ـ حان وقت ذهابي.. تذكري هذا أليدا.. أريدك أن تكوني في انتظاري حين أعود.

نظر إليها لحظة ولّدت لديها انطباعاً أنه ممثل ينتظر التصفيق. ثم عاد إلى المنزل.. مهما كان يأمل أن يكون تأثير عرضه، إلا أنه لم يكن ليناسب ذوق أليدا.. وجاء وكأنه مزيف.

متنهدة، بدأت تجمع قبعتها الواسعة، وكتابها. وهي تسير عائدة، رأت تايثي تسرع نحوها.. ترنح مشيتها كان ينبيء أنها غاضبة.

اشتعلت عينا تايثي بشرارات خضراء وهي تسد طريق أليدا، وقالت بصوت مليء شراً:

ـ أريد أن أكلمك.

ـ ما الأمر.. تايثي؟

ـ بشأن بن.. أريدك أن تبتعدي عنه.

ضحكت أليدا ضحكة ضعيفة:

ـ هذا أمر صعب، فكلانا يعيش هنا.. على أي حال، أظن أن بن هو من يقرر.. ألا توافقينني الرأي؟

ـ لا.. لا أعتقد ذلك.. فالجميع في بالم بيتش يعرف أنني وبن متفاهمان.

ارتفع صوتها مع غضبها:

ـ الجميع تايثي؟ الجميع ما عداه ربما.. أعذريني أرجوك.. أنا داخلة إلى المنزل.

نظرت إليها بكراهية شديدة:

ـ ستبقين بعيدة عنه، إذا كنت تريدين الأفضل لك..

لم تتزحزح تايثي جانباً إلا حين خطت أليدا خطوة ثابتة إلى الأمام.. ودخلت مرفوعة الرأس تشعر بالفخر والوقار. ولم يفتها وهي تقطع العتبة أن تصفق الباب وراءها بحزم. فجأة أحست بالتعب من المواجهة فاستندت إلى الباب وأغمضت عينيها.. مايس أولاً ثم تايثي.. وأملت جادة أن لا يخبيء لها اليوم مزيداً من المفاجآت.

كعادتها حين تشعر بالتوتر، تلجأ إلى المحيط. رمت كتابها على مقعد خشبي في الردهة.. ثم فتحت الباب الأمامي الكبير وأقفلته خلفها بحذر.

تجاوزت كابينة بن.. بعد لقائهما الأخير لم تكن مستعدة لرؤيته.. على مسافة قريبة من الشاطيء، فرشت المنشفة فوق الرمال.. المحيط يبدو مغرياً اليوم.. ودون لحظة تردد غطست في مائه.. سبحت بمحاذاة الشاطيء خمسين متراً، ثم أدركت أنها ابتعدت عن مكان منشفتها، فاستدارت عائدة.. ثم وقفت تمسح الملح عن عينيها.

كان المحيط هادئاً، يكاد سطحه لا يتحرك.. غطت عينيها بيدها، وقررت السباحة إلى المياه العميقة، سبحت إلى أن أحست بتشنج غير عادي لعدة عضلات لا تستخدمها عادة. فاستدارت ثانية نحو الشاطيء، ولم تلاحظ الطيف الطويل القامة الواقف عند حافة الماء، إلا بعد أن وطأت قدماها الرمل.. تقدم بن ليلف منشفة حول كتفيها.

ابتسمت له وقالت ممازحة:

ـ تتجسس عليّ ثانية؟

انضم إليها فوق الرمل الناعم:

ـ بل أراقبك.. ليس من الأمان حقاً أن تسبحي وحدك.

وساد الصمت للحظات قبل أن يضيف وعيناه تحدقان إلى الأفق

البعيد:

ـ لقد تحدثت مع تشارلز والترايت.

ـ وهل أقنعك أنني لا أتجسس عليك.. لحساب أي كان؟

ـ لقد جادلني بدفاع جيد.

ـ لكن.. هل صدقته؟ بن.. يجب أن أعرف.

نظر إليها بعينين حائرتين ثم بدا وكأن شيئاً في داخله ذاب، فقال:

ـ أريد أن أصدقه أيضا.

مال نحوها مستنداً رأسه إلى ذراعها السمراء، وراح يتأمل بإمعان قسمات وجهها، وفي نظراته شوق عارم، ثم استقام ليحيطها بذراعيه..

قالت بثبات:

ـ بن.. أعطيك كلمة صدق شريفة.. أنا لم أتجسس يوماً لمصلحة ماپس.. أقسم لك.

رأت علامات التصديق بارزة في هدوء عينيه، فأغمضت عينيها تسترخي بين ذراعيه.. واستسلمت للأحاسيس الغامرة التي أصبحت مألوفة جداً لها. وأسندت رأسها إليه، لا تريد فراقه.. وهمست:

ـ نحن بدون خجل.. نتصرف هكذا على الشاطىء أمام أنظار الجميع.

رفع رأسه لينظر على طول الشاطىء.

ـ الجميع.. في هذه الحالة، هم مجرد طائر بجع، وعدد من طيور الزمار.. أوه.. وأربعة طيور نورس فضولية. لكن بإمكاننا الذهاب من هنا إذا كنت تريدين ذلك.

ساعدها على نفض الرمال عن منشفتها ووضع القبعة على رأسها.

ابتسمت له بغبطة وهي ترى تعبير وجهه يزداد عمقاً.. ثم تلاشت بسمتها وهي تنظر إلى عينيه، وأحست أنها تكاد تقع، تغرق رأساً على

عقب في أعماقهما.

أمسك يدها لحظة ثم وضعها على وجهه.. استدارا كشخص واحد وسارا يداً بيد على حافة البحر، دون كلام تاركين وراءهما أثراً مضطرباً لأقدامهما لن يدوم أكثر من لحظات حتى يمحيه الموج.

كانا مستغرقين جداً بأفكارهما حتى أن أياً منهما لم يلاحظ العينين الخضراوين بلون البحر، الطافحتين بدموع الغيرة.. اللتين كانتا تلاحقان تحركاتهما من خلف ساتر الرياح المكسو بأشجار النخيل!

* * *

تسلل الكابوس خلسة إلى منامها وكأنه ضباب ليلي يتفوق على كل منطق.. كان هناك مجدداً تلك الموجة الضخمة تلوح في الأفق رمادية كالفولاذ.. وتنقلب عليها وهي تقف إلى جانب والدها قرب الشاطىء.. كانت تحس بأصابع أعماق المحيط المقززة تشدها إلى الأسفل.. فالأسفل، وبالإحساس الخانق المألوف في حلقها.. أخذت تصيح مقاومة، وهذا ما سمح لماء البحر بالدخول إلى رئتيها.. تملكها ذعر عظيم وألم أعظم زاد من وطأتهما ذلك الإحساس بالخسارة الذي انتابها حين مدت يدها دون وعي إلى يد والدها.. ولم تجد إلا السراب.

صيحتها الممزقة أيقظتها من منامها.. كانت الدموع لا تزال رطبة على خديها ومفارش السرير مكوّرة بشكل فوضوي إلى جانبها.. ولزمها لحظات طويلة مرعبة لتدرك أنها سالمة في غرفتها في زانادو.

حاولت بائسة أن تهدىء روعها. دخلت الحمام متعثرة الخطى ورشت وجهها بالماء البارد آملة أن تبعد عنها الإحساس غير المنطقي بالخوف الذي ملأ قلبها.. نظرت في المرآة، فإذا بوجه غريب مفزوع شاحب ومرهق يحدق إليها بغرابة.

لم يكن الفجر قد بزغ بعد. . إنه وقت مبكر على تناول الفطور. . فتحت الستائر قليلاً بما يكفي لتنظر إلى كابينة بن. . لكنها لم تشاهد أية حركة على الشاطىء. ليس أمامها سوى العودة إلى النوم. . هكذا ملست مفارش السرير وعادت إليها، تضع رأسها على يديها، تحدق إلى النور الرمادي المنسرب.

ذلك الكابوس مجدداً! وهي التي ظنت أنها تجاوزت خسارتها لأبيها. . ما تحتاج إليه هو بن حالاً. . فهو وحده القادر على محو الإحساس بالرعب عنها.

بعينين مغمضتين، تصورت مرة أخرى المنظر الذي شاهدته ليلة أمس، حين أراها بن ما أنجزه في رسم صورتها. قادها عبر الكابينة المظلمة إلى غرفة عمله وأدار زر النور ليضيء الغرفة. . قرب النافذة، كانت الحمالة وقماشة رسم صغيرة عليها.

رسمها بحيث تبدو غامضة متكبرة، امرأة قوية ذات شخصية فذة. . كان طرف الساري الأرجواني مرمياً على رأسها ليعطيها جواً غريباً. . لكن عينيها كانتا الأبرز في اللوحة كلها. . واسعتان معبرتان، والثقتان مع ذلك تخفيان ألماً سرياً.

قال لها بن:

ـ أظنني التقطته. . ذلك البعد المراوغ الذي يجعل من هذا الرسم لوحة بدلاً من مجرد صورة جميلة. . وبالطبع هي تحتاج إلى جهد إضافي لإتمامها.

أحست بصدمة لأنه تمكن من الدخول إلى أعماق مشاعرها. قالت:

ـ إنها. . إنها جيدة جداً.

وفكرت: قد تكون هذه اللوحة وراء الشهرة المتوقعة لبن. . وما أغرب أن تكون لي!

مع ذلك، وبالرغم من قبول بن الحذر بها، فقد انتظرت ليلة أمس دون جدوى أن يبدر منه ما يشعرها أنها لم تعد موضع ريبة منه. . صحيح أنها أصبحت الآن تقرأ الاهتمام في عينيه وأن عناقه إياها أصبح حساساً. . لكن هذا ليس كافياً ولا يمكن أن يكون بديلاً مرضياً عن قوله «أحبك» تلك الكلمة التي تتوق لأن تسمعها منه. . كان يساورها إحساس بأنه ما زال متحفظاً تجاهها لسبب ما يدور في ذهنه. . وإذا كان إحساسها صادقاً، ستضطر لأن تُظهر له بالأقوال والأعمال أن حبها وولاءها له ولزانادو هما فوق الشبهات.

انتهت سلسلة الأفكار والصور التي تعاقبت على ذاكرتها، وأصبحت مستعدة للعودة إلى النوم. لكنها كانت تسمع عدة أصوات لتحركات في المنزل، وظنت أنها سمعت صوت سيارة تغادر الفناء الخارجي مع أن الشمس لم تكد تطل من المشرق.

في الثامنة، نهضت من السرير، ارتدت ثوب تنس وفي نيتها أنها بعد عملها الصباحي، قد تأخذ فترة استراحة لتجرب ملعب التنس في زانادو. . وربما استطاعت إقناع بن بلعب بضع جولات معها. . هكذا وصلت مضرب التنس قبل أن تنزل لتناول الفطور

لكنها تعجبت حين وصلت المقصورة، لترى الطاولة محضرة لشخص واحد. . ودون تردد ذهبت إلى المطبخ وسألت مارغريت ما إذا كانت ستأكل بمفردها.

ـ أجل. . هذا صحيح. . لقد طلب مني السيد بن أن أقول لك إنه آسف جداً لأنه لم يستطع وداعك. . لكنه تلقى في ساعة متأخرة من ليل أمس مكالمة هاتفية هامة، وسافر هذا الصباح إلى «تالاهاسي» في فلوريدا. أوصاني أن أخبرك أنه يتعلق بزانادو وستفهمين.

هزت اليدا رأسها. . مع ذلك لم تقدر على إخفاء حيرتها، فهي تعرف أن موعده مع الحاكم لن يحين قبل الأسبوع القادم. . لذا بدا لها

من الغريب أن يسافر إلى عاصمة الولاية باكراً..

خير أم شر.. أغلقت تفكيرها عن الإمكانية الأخيرة مصممة على تجاوز الإحساس بالوحدة.. فهذا صباح تطلعت فيه إلى رؤية بن بلهفة، حتى أنها كانت تحتاج إليه..

قالت لمارغريت:

ـ سأحمل فطوري بنفسي إلى المقصورة.

أعطتها مديرة المنزل صينية مليئة بالبيض والنقانق والتوست والفاكهة والقهوة.. وهذا أكثر مما تستطيع أن تأكله.

حتى جمال الطبيعة الأخاذ الذي يضفي على الفناء المبلل بندى الصباح سحراً وروعة، لم ينجح في تخليص أليدا من مزاجها المكتئب الذي ما برح يلازمها.. أخذت تتلاعب بطعامها وتتساءل لماذا تغير موعد رحلة بن إلى «تالاهاسي» وفكرت كذلك برحلة مايس إلى آسين.. كانت تعرف أن جورج سايلور ما يزال في المستشفى.. وبكل تأكيد، رحلته إلى هناك لها صلة بزانادو.. نظرت أليدا حولها إلى الموقع الرائع.. ولأول مرة ندمت أنها لم تقل لبن كل ما تعرفه عن تحركات مايس، فلو فعلت، لربما كان لزانادو فرصة أكبر للإنقاذ..

كانت قد قررت البدء بتصنيف الأشياء الموجودة في غرفة استقبال الطابق الأرضي.. سارت في طريق مختصر عبر قاعة الرقص الكبرى، ودخلتها للمرة الأولى منذ ليلة الحفلة.. كانت الثريات الكريستالية تلمع تحت أشعة الشمس.. لكن بالنسبة لأليدا كانت تنظر إلى قاعة الرقص وبداخلها إحساس حزين.. ربما لوّنت تجربتها التعيسة هنا مشاعرها نحو هذا المكان إلى الأبد..

توقفت أليدا قليلاً وسط باحة الرقص، محاولة استعادة الإحساس بالخفة والرشاقة اللتين أحست بهما وهي ترقص.. مكان الفرقة الموسيقية كان فارغاً، والبيانو اللماع مقفل، ولا أنغام موسيقية

ناعمة.. حاولت أن ترقص بضع خطوات منفردة، لكن مزاجها المتقلب لم يسعفها.

لا.. من المستحيل استعادة سحر تلك الأمسية.. سارت نحو الباب بكسل، ثم انحنت تلتقط شيئاً وقع دون اكتراث وراء طاولة.

كان مروحة صغيرة من قشر اللؤلؤ المصنّع، قلبتها أليدا بحذر بين يديها، معجبة بالتصميم الرقيق لكل ضلع منها..

واضح أن سيدة أضاعت هذا الشيء الثمين الجميل، وأقفلت المروحة مقررة أن تضعها في مكان أمين، فلا شك أن من أضاعتها ستعود لتفتش عنها.

ارتفعت معنويات أليدا قليلاً حين دخلت غرفة الاستقبال الرئيسية.. كانت إحدى أجمل الغرف في القصر..

أسرعت إلى النوافذ المقوسة المرتفعة، تفتح مصاريعها الخشبية لتدخل أشعة الشمس.. ثم وقفت لحظات تنظر إلى السقف المذهب يشع نوراً فوقها.

ثم بدأت بتعداد محتويات الخزائن الإسبانية الضخمة المصنوعة من خشب الجوز القاتم المحفور، والمصقولة بحرفة وبراعة حرفيي العصور القديمة، وكانت هذه الخزائن تحتوي على مجموعة من الساعات المرصعة بالمجوهرات.. ولم تدرك أن وقت الغداء قد حل إلا بعد أن نظرت إلى ساعتها بعد وقت طويل.

كانت مارغريت تضع اللمسات الأخيرة على طبق من سندويشات الدجاج، حين وصلت أليدا المطبخ، وقالت معتذرة لها:

ـ آسفة.. لقد تأخرت قليلاً اليوم في إعداد الطعام بسبب انشغالي بتنظيف القاعة بعد حفلة الرقص الأخيرة.

قالت أليدا:

ـ أخشى أن يكون الزمن غافلني أنا أيضاً.. هل تناولت غداءك؟

فأنا لا أحب أن آكل وحدي مرة أخرى

انضمت إليها مارغريت على طاولة المطبخ الصغيرة. وأخذت أليدا تقضم السندويش ببطء وهي تفكر، لا تكاد تصغي لهذر مارغريت المرح.. لكن اهتمامها ثار حين بدأت مارغريت الكلام عن مايس:

ـ كان عليّ أن أسرع في تحضير غداء كالب اليوم.. فقد تلقى مخابرة تدعوه لاصطحاب السيد مايس من المطار.. وبالطبع لم تكن نتوقع عودته بهذه السرعة وقد بدا جد غاضب، إضافة إلى...

قاطعتها أليدا:

ـ غاضب؟ هل أخبركم عن السبب؟

ـ كنت أستمع من جهاز آخر، وسمعته يقول إن رحلة آسين لم تنجح.. وإن السيد سايلور رفض مقابلته. والسيد مايس ليس معتاداً على أن يُرفض له طلب.. لذا عاد أدراجه مباشرة إلى المنزل.. وقد أسرع كالب لاصطحابه، رافضاً تناول الغداء لولا إصراري على ذلك، فهو يعلم جيداً أن السيد مايس يكون صعب المزاج إن بقي في الطائرة دون نوم.

سألت أليدا:

ـ وهل مايس هنا الآن؟

ـ ليس بعد.

استوعبت أليدا هذه المعلومات الجديدة وهي تنهي طعامها.. ثم قالت وهي تدفع كرسيها إلى الوراء:

ـ سأكون في غرفة استقبال الطابق الأرضي.

كانت واثقة أن مايس سيأتي باحثاً عنها حين يصل.. وحضرت نفسها لتقول له أن لا شيء يمكن أن يحدث بينهما.

عادت أليدا إلى مجموعة الساعات.. لكن بعد أن دوّنت ساعة في اللائحة مرتين وعلى سطرين مختلفين، رمت لوحة الكتابة من يدها

ساخطة.. إنها بحاجة إلى الخروج ولو لقليل من الوقت، إلى خارج المنزل.. وسرعان ما فكرت بملعب التنس.. بإمكانها الخروج إلى هناك لتكيل الضربات إلى الكرة، علها تُخرج شيئاً من القلق المسيطر عليها.

قبل أن تتمكن من وضع لوحة الكتابة والقلم بعيداً، قاطع حبل أفكارها رنين جرس الهاتف.. فردت عليه فوراً.

قال صوت ذكري آمر:

ـ هل لي أن أكلم السيد راولي؟

ـ أنا آسفة.. لكن السيد مايس ليس موجوداً.

قال الصوت بنفاد صبر:

ـ لا.. لا.. أريد التحدث إلى السيد بندكت راولي.. المتكلم جورج سايلور.

استفاقت أليدا:

ـ سيد سايلور.. بن هو الآخر ليس موجوداً الآن.. لقد سافر باكراً هذا الصباح.

سأل سايلور بلهفة:

ـ وهل سافر إلى «تالاهاسي»؟

ـ أجل.

ـ عظيم.. هذا ما كنت أريد معرفته.

واضح أن المكالمة لها علاقة بزانادو.. لكن لا فكرة لديها عما يقصده جورج سايلور بكلامه.

بعد أن أقفلت السماعة.. أحست ببريق أمل. إذا كان بن سينجح في لقاء جورج سايلور، فلربما هناك فرصة لإنقاذ زانادو.. ثم إن غياب بن هذا الصباح يدل على أنه كسب لنفسه موقعاً..

أخذت مضرب التنس من الزاوية التي وضعته فيها، وخرجت إلى

حديقة المنحوتات.. كانت بركة السباحة مغرية، لكن أليدا استمرت تسير بتصميم نحو الملعب.. إنها بحاجة لأن تسمع صدى الكرة يتردد: تراك! تراك! وأن تحس بالاستغراق الكامل لكل عضلة من جسدها المتوتر في تسديد الضربات القوية.

دفعت باب الملعب تفتحه، ثم فتحت باب كوخ الأدوات.. كانت الرفوف فيه مليئة بالمضارب وعلب الكرات، وبالقرب من سلم المراقبة شبكة تنس، أخذت علبة كرات تنس جديدة، وعادت إلى الملعب.

أحست بالانتعاش لوجودها خارج المنزل.. شمس بعد الظهر كانت تدفىء بشرتها.. والهواء الناعم يعبث بشعرها.. بدأت تضرب الكرة نحو الجدار، ثم تلتقطها في ردة سريعة لتعيدها مرة أخرى.. توقفت هنيهة لتلتقط أنفاسها الحارة، فإذا بها تشاهد مايس يستند إلى البوابة المنخفضة.. وابتسامة ودية على وجهه:

ـ مرحباً أليدا.

غمرتها مشاعر مختلطة وهي واقفة أمامه وجهاً لوجه. فإضافة إلى أنه يبدو وسيماً جداً.. كان واثقاً جداً من نفسه وسعيداً لرؤيتها. وأحست في تلك اللحظات بعقدة ذنب تجاهه.. فبعد مساعدته إياها ولطافته في معاملتها، لا تستطيع الترحيب به من كل قلبها.. فبالنسبة إليها، لا يزال ظل آخر لقاء يقف عائقاً بينهما.

راقبته يفتح مزلاج البوابة، ويتقدم نحوها بخطوات واثقة ويقول:

ـ التنس لعبة ثنائية لا متعة فيها إذا لعبها شخص منفرداً. ما رأيك لو لعبنا دورة؟

انتابها شعور بالسرور المؤقت كونها لن تتحدث معه أثناء اللعب.. أخذت موقعها إلى جانب الشبكة في مواجهة مايس.. رمت

الكرة في الهواء وأرسلتها.

لعب مايس التنس بعدوانية.. كما يفعل كل شيء. وحاولت أليدا أن تتفوق عليه ببراعة، فراحت تضرب الكرة إلى زاوية ملعبه أكثر من مرة.. لكن مايس كان دائماً حاضراً، ينتظر الكرة ويرسلها إليها دونما تعب من فوق الشبكة. حين بدأ التعب يدرك أليدا، كان مايس لا يزال نشيطاً منتظراً ليهزمها.. وأخيراً فاز عليها ولكن بفارق بسيط.

التقيا عند الشبكة.. وتصافحا بدون مودة.. كان البريق في عينيه الرماديتين يُشعر بانتصاره.. ولم يكن هناك شك أنه يحب الانتصار.

رأت أليدا كالب يقلّم شجيرة شائكة عن بُعد قبل أن تغوص في مقعد تحت أقرب مظلة.. وشاهدها كالب تنظر نحوه، فرفع يده محيياً.. فردت عليه بمثل تحيته.

استدارت إلى مايس لتجد علامات الإرهاق بادية في محيّاه لقضائه ليلة دون نوم على متن الطائرة، تبعتها لعبة تنس أنهكت قواه. وبدت تحت عينيه خطوط لم تلحظها أليدا من قبل. قالت له:

ـ كانت لعبة جميلة، أنت لاعب تنس ممتاز.

ـ وأنت كذلك.. لقد نافستني كثيراً.

تنفست بعمق:

ـ هل لديك بضع دقائق؟ هناك موضوع نتكلم به.

تفرس فيها للحظات.. ثم جلس قربها:

ـ عن أي موضوع تتكلمين؟

ـ عمّا قلته لي في حديقة المنحوتات. أنا.. أنا أعتقد أن من الأفضل أن تبقى علاقتنا محصورة في العمل.

كتمت أنفاسها لترى ردة فعله.. نظر إليها مشدود الشفتين ثم قال ببرود:

ـ أوه.. وماذا يفترض بهذا أن يعني؟

ـ فقط أنني .. أنا.

لكنها لم تستطع أن تكمل.

سأل بحدة:

ـ وهل لهذا علاقة بين؟

ـ نحن صديقان.. لكن

ـ صديقان؟ إلى أي مدى أليدا؟ إلى مدى يكفي لأن تبقي حتى ساعة متأخرة من ليل أمس في كابينته؟ إلى مدى يكفي لأن تنامي أول ليلة لك في زانادو هناك؟

شحب وجهها.

ـ وما الفارق بالنسبة لك؟ وكيف عرفت أين كنت ليلة أمس؟ من كان يراقبني؟

تذكرت عناقهما على الشاطىء في وضح النهار، وتعليقها بأن العالم كله ينظر إليهما.. فهل كان هناك أحد يراقبهما؟ ولماذا؟ قال بابتسامة باردة:

ـ يجب أن تحذري ممن يعانقك على الشاطىء أليدا.

لم يزعجها أن مايس عرف بأمرها مع بن، فهو في النهاية سيعرف على أي حال.. لكن فكرة وجود أحد يتجسس عليهما ويبلغه، أثارت سخطها تماماً.. ودفعها غضبها إلى الابتعاد مسرعة.

صاح آمراً: انتظري!

وجرى خلفها، مع أنها كانت تركض بسرعة، إلا أنه أدركها قرب جدار التدريب وأمسكها بقسوة.

كان وجهه شاحباً وكأن لا حياة فيه، قال: أليدا..

كان في صوته رنة يأس.. وعيناه كأنهما شظيتا صوان قاسيتان.. لكنها رأت في أعماقهما الجحيم المثلج.. حدقت إليه وقلبها يخفق.

عانقها بيدين قويتين قاسيتين.. تذكرت حرارة عناق بن.. لكن

حرارة عناق مايس كانت بالنسبة لها باردة كالكريستال، جامدة كالصخر.. ولأنها لم تعد تطيق لمسته، التوت بين ذراعيه وصاحت، تكاد تبكي:

ـ دعني وشأني مايس!

شد على كتفيها مجدداً وجعلها تصيح ألماً، نظرت حولها تستنجد بكالب، لكنها لم تجد له أثراً.. إنها الآن وحدها مع مايس راولي، ولا أحد يساعدها.

هزها بعنف:

ـ أليدا.. حباً بالله! أنا لا أريد أذيتك! أريدك أن تحبيني!

استجمعت كل قوتها، وانتزعت نفسها من قبضته.. عندها أدرك كم أفزعها، فاستدار عنها يحاول السيطرة على نفسه..

حين رأت نظرة الهزيمة على وجهه، تختلف تماماً عن تلك النظرة الواثقة المغرورة التي يعرفها العالم كله عن مايس راولي، أحست بالشفقة عليه.. لا شك أنه تلقى أكثر من ضربة قاتلة لغروره، حين رفض جورج سايلور رؤيته في آسپن بالأمس.. لقد أصابه هذا بجرح اخترق كيانه.. ولم يعد يخيفها.. ليس وهو يبدو كما هو الآن.

قالت بلطف:

ـ مايس، لا تستطيع إجبار أحد أن يحبك.. وتعرف هذا.

وضعت أصابعها على ذراعه.. لكنها أحست فجأة بتعب شديد.. إنها مرهقة إلى درجة أنها لا تستطيع الكلام مع أحد، ومستنزفة عاطفياً.. كان التعب يتغلغل في أوصالها حتى أصابعها وأطراف قدميها.. انحنت ببطء تلتقط مضربها. حين استقامت رأت مايس ينظر إليها.. بدا متلف الأعصاب.. وبالرغم مما حدث توأ، رق قلبها له..

قال برنة اكتئاب حزينة:

ـ سامحيني.. لقد تسببت فعلاً بكارثة.. جئت إلى هنا لشيء

واحد أطلبه منك.. أما الآن..

هز كتفيه، وكانت حركة تكاد تكون مسرحية وكأنه يمثل.

انتظرت أليدا بدافع الشفقة والأدب.. ثم سألت:

ـ ما الأمر الذي جئت تطلبه؟

إنها لا تريد أكثر من إنهاء هذا المشهد.. هذه المرة لا تريد أن يبقى الأمر معلقاً، لا أسباب تجعلها تكلمه مرة أخرى.. أرادت أن ينتهي أمرها مع مايس راولي، وإلى الأبد.

لكن.. حين تكلم، ظنت للحظة جنون غريبة أنها لم تسمعه جيداً..

قال بصوت وقور:

ـ جئت أطلب منك.. الزواج بي.

* * *

٨ ـ اللعب مع الموت

حدقت أليدا إليه غير مصدقة.. وتعاظم الأزيز المنخفض في أذنيها ليصبح هديراً. صفقت راحة يدها على الجدار الساخن لتدعم نفسها.. لم تكن تتوقع ما سمعت من مايس.. في أكثر أحلامها جنوناً لم تكن متحضرة لمثل هذا الطلب.

قالت مكافحة لتبقي صوتها ثابتاً:

ـ لا أصدق أنك تعني هذا.. لا يمكن أن تكون راغباً في الزواج بي.

بدأ اللون الرمادي في وجهه يتبدل إلى الأسمر الطبيعي.. وقال:

ـ ولكنني أعني ما أقول حقاً.

بدأت ترى مايس القديم يبرز مجدداً وهو يحس بنفسه يعود إلى السيطرة على الموقف.. مايس الهادىء، الحازم، المتكبر، عاد ليمسك بزمام الأمور ثانية.

سألها:

ـ ماذا يجب أن أفعل لأقنعك؟ هل يجب أن أكون متوداً قديم الطراز وأركع على ركبتي أمامك؟ هل يجعلك هذا تصدقين أنني جاد في طلبي؟

هزت أليدا رأسها مستنكرة.. وحاولت أن تبعد يديها عن يديه، لكنه أمسكها بسرعة.. لم تصدق هذا التغيير المفاجىء في مزاجه..

ليس بعدما بدر منه منذ قليل.. وكيف يمكنها أن تثق برجل يستطيع تغيير تعابير وجهه وطريقة تصرفه من الانهيار إلى الإرهاب خلال بضع دقائق.. كيف يمكنه أن يعتقد أنها نسيت الطريقة التي حشرها فيها غصباً ليعانقها رغماً عن إرادتها؟ كيف يمكن أن يفسر التمرد بأنه اهتمام؟

جالت بنظرها مرعوبة لترى ما إذا كان كالب قد عاد إلى عمله في تشذيب الشجيرات.. لكنها لم تلمح له أثراً.. كان في داخلها إحساس يقنعها بعدم صوابية البقاء بمفردها مع مايس في ملعب التنس.. هو بالتأكيد لا يشكل خطراً داهماً عليها، لكنها لا تستطيع أن تنسى بسهولة القساوة الفولاذية في عينيه ولا البأس البارد لقبضته.

قالت وقد أشاحت بنظرها بعيداً عنه:

ـ أحتاج إلى وقت للتفكير مايس.. لا أستطيع اتخاذ قرار الآن بشأن الزواج بك أو عدمه.

كانت خائفة أن تقول له إنها لن تتزوجه.. كانت خائفة من إثارة غضبه مجدداً.

وضع يداً ناعمة وباردة على شعرها، فارتجفت دون إرادة منها:

ـ أليدا.. أنا مندهش إذ ليس من عادتك تمثيل دور العابثة.

ـ ليس الأمر هكذا.. يجب أن أعود إلى المنزل.. مارغريت تنتظرني.

بسيطرة قوية على النفس سارت مرفوعة الرأس عبر المرجة الخضراء الواسعة، نحو المنزل.. كانت تعرف أن مايس يراقبها لكنها لم تستدر إلى الوراء.

في غرفتها، أدارت صنبوري الماء في مغطس الحمام، وتركت المياه تجري بأقصى قوة لها.. كانت تدرك أنها لن تستطيع غسل آثار لقائها بمايس، لكن الاستحمام جعلها تشعر أنها أفضل حالاً.. لا شك

أنها سترى مايس عما قريب، وأنه سيضغط ليحصل على ردها.. وكانت مقتنعة بجدية عرضه للزواج.. لكنها لن تعطيه فرصة.

ارتدت تنورة حمراء وبلوزة زهرية بسيطة.. بينما كانت تفكر بتناول عشائها في غرفتها، تصاعد قرع مستعجل على الباب.

كانت مارغريت:

ـ آنسة أليدا.. تعالي بسرعة!

حين فتحت الباب كانت مدبرة المنزل تقف في الخارج تفرك يديها.

ـ مارغريت؟ ما الخطب؟

ـ إنه كوكو.. لقد أفلت.. أرجوك أن تحضري لتري إذا كان بإمكانك المساعدة.

ـ كوكو؟ أتعنين قرد الأميرة؟ ما الذي يفعله في زانادو؟

ولحقت بمارغريت مسرعة على السلم.

ـ جاءت الأميرة تبحث عن مروحة أضاعتها في الحفلة الراقصة. إنها غالية الثمن كما تقول.. ورافقتها الآنسة تايثي.. ثم قفز كوكو..

لم تستطع أليدا فهم الكثير من شرح مارغريت المتلعثم، وسمعت زعيق الأميرة.. كانت تصيح:

ـ كوكو! يا طفلي الحبيب!

وفتحت أليدا باب قاعة الرقص الكبيرة، لتستوعب المنظر.

كانت الأميرة، بشعرها المنفوش ذي اللون البرتقالي تقفز صعوداً ونزولاً على أرض باحة الرقص المنزلقة.. فوقها كان كوكو، وضحكة النصار على وجهه، يهذر ويتأرجح من ثريا إلى أخرى.. الكمشت أليدا فزعاً حين رأت قطع الكريستال ذات الرؤوس الحادة تتأرجح وترن بجنون.

استدارت الأميرة إلى أليدا:

ـ افعلي شيئاً . . لو سمحت! انزلي كوكو لي!

بقيت أليدا مصدومة لحظات، ولم تستطع الكلام. ووقفت الأميرة تنظر إليها . . لاحظت أليدا أن تايثي تقف دون حراك في الزاوية، عيناها تنتقلان من كوكو إلى أمها، ثم إليها.

قررت أليدا أن عليها أخذ زمام الأمور فقالت للأميرة: ناديه.

ردت الأميرة ببرود:

ـ لقد فعلت هذا . . لكنه لم يستجب.

نظرت أليدا لترى أن كوكو أصبح فوقها تماماً، بدا معتداً بنفسه، ماكراً، ومسروراً لأنه تفوق ذكاء على بني البشر. انتزع قطعة كرپستال وصوبها نحو رأس أليدا. . لكنها كانت يقظة فانحرفت عن مكانها، لتقع القطعة إلى جانبها، وتتقفت إلى مئات الشظايا الصغيرة.

أطلقت مارغريت، التي لا تزال تفرك يديها، آهة صغيرة:

ـ هذه الثريات لا تقدر بثمن . . يجب ألا يقطعها . . يجب ألا يفعل!

قالت أليدا:

ـ مارغريت، اذهبي وجدي كالب . . سنحتاج إلى أطول سلم خشبي في القصر كله.

نظرت مارغريت بإحباط إلى أليدا.

ـ لكن كالب عاد إلى المطار . . فهل نسيت أن طائرة السيد بن ستصل هذا المساء!

شدت أليدا شفتيها . . وصمتت لحظة ثم قالت:

ـ يجب إذن أن تجدي السيد مايس.

ـ لقد خرج السيد مايس ليمضي الأمسية في الخارج، وقال إنه لن يعود إلى العشاء.

قالت مرغمة:

ـ إذن ربما استطعت بمساعدة تايثي إمساك السلم.

نظرت إلى تايثي . . وأيقنت على الفور أنها لن تتلقى أي مساعدة منها . . فقد كانت تبعد نفسها، متجاهلة قفز كوكو فوق الثريات، غير عابئة بهستيريا أمها . . في الواقع بدت عيناها مركزتين على مكان وزمان آخرين . . كان واضحاً أنها مخدرة.

استدارت الأميرة مرة أخرى إلى أليدا:

ـ لو وقع كوكو وأذى نفسه، سوف . .

ردت أليدا وقد طفح كيلها:

ـ سوف ماذا؟

أجفلت الأميرة من حزم أليدا وجرأتها، فتلعثمت:

ـ سوف . . سوف . .

قاطعتها أليدا بصوت منخفض وثابت:

ـ سوف لن تفعلي شيئاً . . في الواقع ستضطرين للتعويض شخصياً عن الأضرار التي تسبب بها قردك المدلل . . وأؤكد لك أن الثمن سيكون باهظاً.

شهقت الأميرة:

ـ كيف تجرؤين على مخاطبتي هكذا؟

تابعت أليدا بالصوت المنخفض عينه:

ـ وأكثر من هذا . . طالما أنا في زانادو . . فإن قردك غير مرحب به هنا . . هل هذا مفهوم؟

ـ لماذا . .

ـ ليس هناك ما يجبرنا على التعامل مع حيوانات مدللة غير أليفة. ولن أحرّك إصبعاً لأساعد كوكو الغالي عليك، إلا إذا وافقت على تركه في المنزل حين تزورين هذا المكان.

سادت لحظة صمت طويلة . . أخيراً هزت الأميرة رأسها، وقالت

مهددة:

- سأشكوك لمايس.. انتظري فقط حتى أخبره قصة التمرد هذه أيتها الموظفة.

- أنا موظفة لديه، وليس لديك.

لم تعقب الأميرة، بل ركزت نظرها بغضب على أليدا.. ولوجئت بتصفيق حاد من تايثي التي قالت بصوت واضح وساخر:

- براڤو..

استدارت الأميرة بنظرة شرسة إلى ابنتها وقالت مهددة:

- أنت اخرسي.. سيكون حسابك عسيراً في المنزل.

توقف التصفيق وغاصت تايثي مجدداً في الظل.. أحست أليدا بإشفاق غريب عليها.. فالعيش مع الأميرة له صعوباته، حتى لو كان في جو من الرفاهية والترف.

فكرت أليدا بسرعة.. تذكرت أنها رأت سلماً خشبياً مرتفعاً في كوخ ملعب التنس.. غير أنها ليست قوية بما يكفي لتحمله بمفردها.. وعاد كوكو يقفز من ثريا إلى أخرى، ويرمي من حين إلى آخر قطعة كريستال دقيقة إلى الأرض.. يجب فعل شيء.. وبسرعة.. إذا أرادت أن تتجنب المزيد من الضرر.

قالت:

- مارغريت.. أريدك أن تتصلي بالمطار.. استعلمي ما إذا كانت طائرة بن ستصل في موعدها.. وإذا كانت ستتأخر، اطلبي مناداة كالب وقولي له أن يعود فوراً إلى المنزل.. نحن نحتاج إليه هنا.. وبإمكان بن أن يستقل سيارة أجرة إذا اضطر.. أما إذا كانت الطائرة ستصل في موعدها، فلينتظر ويحضر معه بن في أسرع وقت ممكن..

أسرعت مارغريت لتفعل ما أمرتها به، وأكملت أليدا:

- تايثي.. ستساعدينا كثيراً إذا ما التقطت قطع الكريستال التي

يرميها كوكو على الأرض.

رمقتها تايثي بنظرات عدائية.. وفيما انحنت أليدا نافدة الصبر تلملم القطع الواقعة على الأرض لمحت من زاوية عينها حركة سريعة، كانت تايثي تتسلل من قاعة الرقص. وجمدت أليدا.. وراودها إحساس مخيف مقشعر كان يمر على مؤخرة عنقها.. إحساس دفعها لأن تلحق بتايثي دون تفكير.

كانت تايثي تركض بخفة صعوداً على السلم المقوس، وتوقفت لحظة تنظر إلى أليدا التي صاحت بها:

- تايثي.. توقفي!

لم تأبه تايثي بها، وتابعت الركض على طول الممر، تميل عند كل باب قليلاً، تبحث عن شيء ما.. ثم اقتربت أليدا منها بحيث رأت عينيها تلمعان بشدة.. ثم انطلقت كالسهم قبل أن تدركها..

فتحت باباً صغيراً، وتسللت سلماً حلزونياً في الداخل. قالت أليدا مخطوفة الأنفاس: البرج!

لم تكن تعرف ما تنويه تايثي، لكنها شعرت أنها تضمر شراً. وسمعتها أليدا تشهق لتتنفس وهي تتقدمها في الظلام فلم تشك بأنها تحتاج إلى من يساعدها في التعامل معها.

صاحت آملة أن تسمعها مديرة المنزل: مارغريت!

وأسرعت خلف تايثي.. تحاول عبثاً إقناعها:

- تايثي.. أرجوك، عودي.. لا شيء تفعلينه في الأعلى!

لكن دون رد.

أخيراً، حشرت أليدا تايثي في غرفة المراقبة في أعلى البرج.. وقفت تايثي وظهرها إلى النافذة، وكان المساء بلونه الرمادي قد بدأ يدخل في الليل.

صاحت تايثي محذرة:

- ابتعدي عني!
- تايثي، ماذا تريدين؟ لماذا صعدت إلى هنا؟
- أنت! لقد اكتفيت منك! لقد خطفت مني بن!

تراجعت أليدا مصدومة:

- تايثي.. أنا لم أخطف منك أحداً.. انزلي معي فليس هنا المكان المناسب لمناقشة الموضوع.

سمعت أليدا وقع خطوات مارغريت على السلم الحديدي خلفها.. وفي مكان أبعد، صياح الأميرة.

قالت تايثي:

- أريد بن أليدا.. وسأحصل عليه.
- تايثي.. البحث في هذا الأمر غير مناسب هنا..

كانت تتحرك نحو تايثي وهي تتكلم، متجاهلة اللمعان الغريب في عيني الفتاة الخضراوين، ضربت تايثي يد أليدا الممدودة، وتراجعت نحو النافذة، تبحث عن قفلها.

بصدمة، أدركت أليدا أن النافذة ليست نافذة.. بل هي بوابة خفية.. لاحظت أليدا أن تايثي تهم بالخروج من الباب إلى المنصة الخطرة في الخارج.. فصاحت:

- تايثي.. لا!

أمسكت تايثي أكرة القفل وفتحت الباب.. ودون أن تنظر إلى الخلف نقلت ثقلها إلى الشرفة الخطرة.. وصاحت محذرة:

- لا تلحقي بي!

سمعت أليدا شهقة مارغريت المذعورة حين فتحت تايثي الباب، وتنفست:

- آنسة تايثي.. لا..

ومن خلفها كانت تقف الأميرة التي صاحت بحدة:

- تايثي.. كفى سخافة! ابتعدي من هناك في هذه اللحظة بالذات!

لكن تايثي لم تخف.. ونظرت إلى والدتها بكراهية شديدة:

- ما خطبك أمي؟ أتريديني أن أعود معك كي تستطيعي مراقبة الضرر الذي يسببه حبيبك كوكو الصغير؟ آسفة لأنني أزعجتك..

وضحكت بصوت أجش غير متعقل.

وخرجت أكثر فوق المنصة، ظهرها يستند إلى السياج المنخفض.. كانت الريح قد بدأت تنفخ، وتطاير شعرها حول وجهها.. فأزاحته جانباً بيد مرتجفة.

همست مارغريت:

- آنسة أليدا.. يجب أن تنزل الآنسة تايثي عن المنصة هذه.. لقد حكم عليها أنها أضعف من أن تحمل أي ثقل، منذ سنوات بعيدة. ومن المفترض أن تكون الأبواب إليها موصدة. يمكنها أن تقع من هناك بسهولة.

أمعنت أليدا النظر في السياج فأدركت صحة ما تقوله مارغريت. كان السياج الضيق صدئاً في بضعة أمكنة، ورأت أن القسم الذي تقف عليه تايثي ينحني بشكل خطير كلما تحركت.

قالت الأميرة:

- تايثي.. ارجعي إلى الداخل. إذا عدت، سأعديك ذلك المركب الذي أردته.. أو ربما ذلك العقد الألماسي الذي أعجبك في محل المجوهرات.. تعالي الآن، وتوقفي عن ألعابك السخيفة!

هزت تايثي رأسها وتكلمت بصوت منخفض لم تستطع حتى أليدا القريبة أكثر منها أن تسمعه جيداً:

- مسكينة أمي.. تحاول دائماً أن ترشوني بأشياء.. أشياء.. والمزيد من الأشياء، طوال حياتي.. متى تدركين أمي أنني لا أريد الأشياء؟ لا المراكب، ولا الألماس.. أنا أبدو رهيبة وأنا أرتدي

الألماس أمي.. ألم تدركي هذا بعد؟

وأطلقت صوتاً هو مزيج من الضحك والبكاء.

قالت أليدا تحاول إقناعها:

- تايني.. المكان خطر جداً في الخارج، هذه المنصة قد تفلت عن البرج، وعندها ستلاقين حتفك.

لم تكترث تايني لما سمعته، فأكملت أليدا وقد بدأ صبرها ينفد:

- ألا يمكن على الأقل أن تقولي لنا ماذا تريدين؟

تطلعت تايني إلى أراضي زانادو.. وقالت تايني:

- ماذا أريد؟ ما أريده.. هو بن.

تشاورت أليدا هامسة مع مارغريت، تسألها:

- متى سيحضر بن؟

- إذا وصلت طائرته في الوقت المحدد لها سيكون هنا بعد وقت قصير.

نادت أليدا تايني:

- إذا جئتك بين إلى هنا.. فهل تدخلين؟

فكرت تايني قليلاً.. ثم مررت يدها على عينيها بقلق، جعلت حركتها غير المدروسة السياج خلفها يترنح بحدة.. شهقت أليدا خائفة.. بينما راحت تايني تحدق إلى الفضاء دون أن تنطق ولو بكلمة واحدة.

فكرت أليدا يائسة بطريقة أخرى تخرجها من هذا المأزق.. وقررت أن على مايس، بصفته رب البيت، أن يعلم بما يجري. هي تعرف أن بن يعي أكثر طريقة تفكير تايني.. لكن في ورطة كهذه يمكن لمايس أن ينقذها.

سألت مارغريت:

- أتعرفين أين هو مايس؟

هزت مديرة المنزل رأسها نفياً:

- إنه غالباً ما يتناول عشاءه في مطعم «البحر».. عدا هذا، لا أعرف أين يمكن أن يكون.

- سأذهب لأفتش عنه.. قد يتمكن من مساعدتنا.. ابقي تايني تتحدث، ولا تدعي الأميرة تثيرها. سأعود في أسرع وقت ممكن.

أسرعت أليدا تنزل السلم الحلزوني.. تدرك أن الوقت ضيق جداً أمامها.. وكم تمنت لو كانت غير مجبرة على البحث عن مايس، لكن لا خيار آخر لديها، الشيء المهم الآن، هو إنزال تايني عن البرج.

وهي تمر أمام قاعة الرقص، رأت كوكو يجلس فوق الثريا.. ويبدو راضياً تماماً، وبما أنه لم يعد الآن مركز الاهتمام، فعرضه المثير توقف.. ولسوف نتعامل معه لاحقاً.

دون تردد فتحت باب الكاراج، وصعدت إلى سيارة بن الفولز واكن.. كان المفتاح فيها لحسن الحظ. ودار المحرك رأساً.

لم تكن تعرف «وارث آفينيو» جيداً ولم تقد سيارة من قبل في الشارع.. على أي حال سرعان ما وجدت سيارة مايس التندربيرد تقف عند إحدى الزوايا.. وكان أسهل رؤية لوحة مطعم «البحر».. فتوقفت أمام بابه..

كان المطعم من الداخل أشبه ما يكون بحديقة عامة فيه برك تشابه في نوافيرها البرك الصخرية الطبيعية.

رفع كبير السقاة حاجبه دهشة لرؤية أليدا تدخل راكضة في تنورتها البسيطة وبلوزتها، وشعرها متطاير بجنون.. قالت له مقطوعة الأنفاس:

- أرجوك، هل لك أن تستدعي السيد مايس راولي؟ الأمر خطير!

أقنعه شيء في لهجتها اليائسة أنها جادة، فقد اختفى في المطعم وفي لحظة عاد ليقول:

ـ آسف.. السيد راولي ليس هنا.

ـ هل أنت واثق؟ هل تعرفه جيداً؟

رفع كبير السقاة هامته إلى الأعلى متفاخراً:

ـ أؤكد لك أنني أعرف السيد راولي، وأكرر أنه ليس هنا.. ربما تجدينه في المقهى..

ـ شكراً لك.

وانطلقت مسرعة إلى المقهى. كانت الأنوار في الداخل باهتة، وهذا ما جعلها تتردد في الدخول وحدها، غير أنها تذكرت تايثي الواقفة فوق المنصة المتداعية.. فسوّت كتفيها مستقيمة وخطت إلى الداخل.

شاهدته فوراً يجلس مع مجموعة من أصدقائه حول طاولة وهو مستغرق في حديث مع شقراء أنيقة.. رفع رأسه لحظة، وشاهدها واقفة، فعلا وجهه تعبير حيرة.. اعتذر من رفيقته وتقدم نحو أليدا.

قال بهدوء:

ـ هل أفترض أنك جئت إلى هنا لتزفي إليّ الخبر السار؟ هل أعلن لأصدقائي أننا مخطوبان؟

وأشار إلى المجموعة التي يجلس معها.

هزت أليدا رأسها:

ـ ليس الوقت مناسباً لهذا الكلام.

وأغمضت عينيها لتتحاشى رؤية الغضب المتصاعد في عينيه.

ـ هل تجدين متعة في تركي معلقاً أنتظر ردك؟ أليدا، لن أقبل أن تتلاعبي بي.. اعلمي أن عرض الزواج لا يصدر عني بسهولة، وإذا لم تعطني رداً قاطعاً.. سأتصرف من تلقاء نفسي، وأعلن الخطوبة.

متجاهلة سخريته، أعلنت له القصد من مجيئها بأسرع ما تستطيع، وراحت تصف له منظر تايثي فوق سياج البرج والخطر الذي يتهددها.

تبدل مزاجه من الغضب إلى عدم التصديق، ثم تحول مجدداً إلى

الغضب، وقال:

ـ أفهم من كلامك أنك ما جئت بحثاً عني إلا لأجل تايثي فقط؟ لتقولي إنها تحاول لفت الانتباه إليها؟ بالتأكيد لا تتوقعين مني أن أذعن لنزوة أخرى من تايثي؟

وأدار ظهره لها.. فحاولت مجدداً:

ـ لا مايس.. الأمر أكثر من هذا.. إنها.. خرجت عن طورها.. يمكن أن تقع من البرج وتلاقي حتفها.. نحن نحتاج لمن يساعدنا في إقناعها بالنزول.

بدا في عيني مايس بريق قاس:

ـ سأحضر فيما بعد.. حين أنتهي من شرابي.. اذهبي وقولي لتايثي أن تنزل من هناك فوراً.

سار عائداً إلى أصحابه، وبينما هو يشرح لهم سبب المقاطعة التفت أكثر من واحد منهم لينظر إليها. وقفت أليدا لحظة.. وسمعت ضحكة مايس، لتدرك أنها لن تستطيع الاعتماد عليه في المساعدة.

عادت إلى زانادو بسيارة الفولز واكن متجاوزة كل حدود السرعة، حين توقفت أمام المنزل نظرت إلى أعلى البرج خائفة مما قد ترى.

كانت تايثي لا تزال تقف على المنصة، شعرها يتطاير حولها.. والقمر تسلل من خلف الغيوم يغمر البرج بنور خفيف.. ارتجفت أليدا.. وأملت أن يسعفها عقلها بفكرة أو.. بطريقة.. أية طريقة.. لإقناع تايثي بالنزول من ذاك المكان المرتفع المحفوف بالمخاطر.

سألتها الأميرة ما أن دخلت غرفة البرج:

ـ هل وجدته؟

هزت أليدا رأسها إيجاباً.. وعيناها مثبتتان على وجه تايثي، التي كانت تقف في الخارج فوق زانادو، ووجهها خالٍ من أي تعبير.

ردت بلهجة تتكلف فيها الإقناع:

ـ إنه . . سيأتي قريباً . . كيف حالها؟

همست مارغريت:

ـ لا شيء تغير.

قالت أليدا همساً بدورها:

ـ لم أستطع إقناع مايس بالمجيء معي . . قال إن تايثي إنما تحاول فقط لفت الانتباه إليها . . إنه لا يأخذ تصرفها على محمل الجد.

قالت مارغريت:

ـ إنه معذور في إحساسه هذا . . فلطالما تصرفت تايثي كطفلة مدللة . . لكن هذه المرة . . الأمر مختلف.

ـ هل اتصلت بكالب في المطار؟

ـ لقد وصلت طائرة السيد بن في موعدها . . ويتوقع أن يصلا قريباً . .

أحست أليدا أن من الواجب عليها قول شيء، فعل شيء . . فتقدمت إلى الأمام، وبدأت تتحدث إلى تايثي بصوت هادىء:

ـ تايثي . . لقد عرفنا مكان بن وسيحضر سريعاً . . إنه في طريقه إلى هنا الآن . حين يصل أريدك أن تعودي إلى الداخل، وسنتركما معاً لتتصارحا.

أدارت عينين فارغتين إلى أليدا:

ـ بن . . لقد أخذته مني!

ـ لا تايثي . . سيحضر بن سريعاً . . وسيتحدث إليك.

أدركت أليدا أن الفتاة فقدت سيطرتها على الواقع، وربما هي الآن تائهة في أرض خيال كئيبة من وحي تصوراتها . ومن المستحيل التعامل معها الآن على أساس واقعي.

أشارت إلى الأميرة ومارغريت بالبقاء حيث هما . . وتقدمت ببطء نحو تايثي . كانت قبضتها على السياج المترنح تقلقها . . وفكرت أن

تقترب منها بما يكفي لتمد لها يدها . لو أن تايثي تتقبل يدها، فسيكون هذا ضمانة لعدم وقوعها فيما لو انهارت المنصة.

بدا أن تايثي لم تلاحظ تقدم أليدا الثابت البطيء نحوها، وعادت لتنظر شاردة الذهن بفراغ رهيب . وصلت أليدا إلى الباب الصغير، لكن ما إن وضعت يدها على إطار الباب، حتى تكلمت تايثي:

ـ توقفي أليدا . . الزمي مكانك.

ـ تايثي . . أنا أريد أن أساعدك فقط . . أريد أن أقف إلى جانبك إلى أن يصل بن.

ـ بن؟ وهل هو قادم؟

أجفلت أليدا وغمرها إحساس باليأس . . بكل تأكيد تذكر تايثي أنها أخبرتها بأن بن قادم! أم أنها لا تتذكر؟

ضاقت عينا تايثي تنظر حولها بارتباك، ثم ترنحت والهواء يلفح ظهرها . . سألت بصوت مرتفع:

ـ أين أنا؟ لماذا تريدينني أن أقف هنا؟

أعادت أليدا وضع يدها على إطار الباب، وقالت بنعومة:

ـ نريدك أن تعودي إلى الداخل الآن . . أرجوك . . خذي يدي.

مدت يدها نحو تايثي، التي مررت عينين خضراوين قلقتين على وجه أليدا . . ثم صاحت فجأة:

ـ لا أريد مساعدتك . . ابتعدي عني!

تراجعت أليدا خائفة من العدائية البادية في عيني تايثي، وهي تشعر في الوقت عينه بالإحباط.

قالت مارغريت:

ـ أسمع شيئاً . . ربما يكون كالب والسيد بن.

قالت أليدا دون أن تزحزح نظرها عن وجه تايثي:

ـ هذا ما أرجوه.

شهقت الأميرة من خلفهما.. كانت تايثي لا زالت بعيدة عن التجاوب، لكن هذا لم يمنع الأميرة من أن تنظر إلى أليدا بشيء من الأمل والإعجاب، مع ذلك لم تتكلم.

قالت أليدا:

ـ بسرعة مارغريت.. اذهبي وانظري من القادم.

بعد بضع دقائق، تنفست أليدا الصعداء لسماعها صوت بن في الردهة السفلى.. في لحظة، كان يقفز السلم ثلاث درجات دفعة واحدة، وفي أثره جاء مارغريت وكالب.

استوعب الموقف فوراً: فتاة على شرفة حديدية مهزوزة مخدرة بدا وأنها فقدت التواصل مع الواقع.. وجه أليدا المتوتر، والأميرة الصامتة بشكل غريب.

قال لكالب:

ـ أعطني حبلاً.

غادر كالب مسرعاً وعاد يحمل حبلاً، لم يُضع بن وقتاً في ربط انشوطة في نهايته. ثم قال لأليدا:

ـ سوف أكلمها، في هذه الأثناء سأخرج إليها، وأدس الحبل فوق رأسها وكتفيها.. أريدك أن تمسكي الطرف الآخر. حين أصل بالحبل إلى خصرها، أريدك أن تجذبي.. هل فهمت؟

همست أليدا، مرتاحة للتخلي عن زمام الموقف لشخص آخر: أجل.

أمسكت طرف الحبل وراقبت بن يسير بحذر نحو تايثي.. راقبته تايثي بالطريقة المتحفظة ذاتها، وكأنما من مسافة بعيدة.

قال لها:

ـ ستكونين مرتاحة أكثر لو جئت إلى هنا، قربي.. ما رأيك لو تمسكين بيدي لأساعدك على الدخول؟

ـ أحب الوقوف هنا.. إنه بارد جداً.

اقترب منها أكثر:

ـ بإمكاننا فتح الأبواب هنا.

ـ ابتعد عني.. أنت قريب جداً.

ـ لا تخافي، نحن صديقان.. ألا تذكرين؟

ـ أنت صديقها.. ولا يمكنك أن تكون صديقي أيضاً.

قال بصبر متقدماً: بالطبع أستطيع.

لم تلاحظ تايثي تحركه بينما حبست أليدا أنفاسها. كانت قدمه تكاد تلامس المنصة المهزوزة.. لكنه لم يكن قريباً بما يكفي لوضع الحبل حولها.. يجب أن يخطو إلى الخارج أولاً.. فهل سيتمكن من هذا دون أن يرسلهما معاً إلى الموت؟

هبت ريح باردة عبر الباب، وارتجفت أليدا.. في الخارج، بدت تايثي غير مكترثة بالريح.

أصبح بن قريباً بما يكفي منها.. لحظات وسيتمكن من رفع ذراعيه لرمي الحبل من فوق رأسها.. ولم يبدُ على بن أنه يلاحظ ترنح المنصة أو تزايد قوة الريح، فقد كان يركز على ما ينوي عمله.. ببطء وضع الحبل فوق رأسها.. وبحركة سريعة دسه حولها.. فصرخت صرخة مدوية حادة وطويلة.

صاح بن:

ـ أليدا.. شدّي!

وشدت أليدا الحبل بمساعدة مارغريت وكالب، ليجلبوا تايثي نحو السلامة.. وكان هذا في الوقت المناسب تماماً إذ إن جزءاً منفلتاً من السياج الحديدي انفصل عنه وتهاوى على الأرض أمام المنزل مطلقاً صوتاً مدوياً.

أخيراً أصبحت تايثي سالمة.. متداعية إلى الأرض ككومة

مهملة . . أما أمها ومارغريت فقد اتحنتا فوقها للمواساة.

صاحت أليدا:

ـ بن! هل أنت بخير؟

ورمت نفسها بين ذراعيه، فضمها إليه.

ـ أنا بخير.

ـ لست أدري ماذا حصل لها بن . . لقد ركضت إلى هنا، وخرجت إلى المنصة.

ـ أعرف . . أعرف . . لا شيء كان يمكن أن تفعليه لمنعها . . كنت أعرف بمشاكلها منذ زمن بعيد، لذا هذا لم يدهشني . . كنت أتمنى لو أنك لم تضطري إلى التورط.

تركته يحتضنها . . أغمضت عينيها ومالت إلى صدره تستمع إلى دقات قلبه الثابتة المطمئنة.

لم تفتح عينيها إلى أن سمعت من يصفر وهو يصعد السلم اللولبي، وانفتح باب غرفة البرج بقوة ليقف مايس هناك يراقب ببرود المنظر أمامه . . لم ينظر إلى تايثي الملتفة ببطانية دافئة سوى نظرة فضول، ثم ركز نظره على أليدا الواقفة ملتفة بذراعي بن. أحست أليدا أنها محمية، ولم تشعر بالذعر من تنفس مايس الغاضب، مع ذلك انكمشت تلتصق بين حين رفع مايس إصبعه في وجه أخيه.

صاح مايس بغضب:

ـ بتدكت . . ما معنى هذا؟

خطا إلى الأمام وقبضتاه مشدودتان إلى جانبيه . . وأكمل:

ـ من الأفضل لك أن ترفع يديك عن خطيبتي فوراً!

* * *

٩ ـ عندما تحترق العيون

اشتدت ذراعاه من حولها في ردة فعل للحظة قصيرة، وسرعان ما تراجع إلى الوراء غير مصدق لما سمع. كان وجهه أحمر، وعيناه تبحثان عن جواب في وجه أليدا المصدوم. حين لم يجد فيه ما يطمئنه، بدا وكأن نوراً انطفأ وراء عينيه، تاركاً أليدا وحدها في ظلام.

قال بحذر:

ـ آسف . . لم يكن لدي فكرة.

أشاح بنظره، ومرّ أمام مايس مسرعاً إلى السلم . . صاحت أليدا في وجه مايس، والغضب يتصاعد في داخلها:

ـ مايس . . كيف تجرؤ على قول هذا؟ ليس هناك خطوبة. أنا لم . .

رفع مايس رأسه إلى الوراء ورد مبتسماً:

ـ حقاً؟ حين تعودين إلى رشدك، سيكون هناك خطوبة، في الوقت المناسب.

التفتت أليدا إلى تايثي التي بدأت تستعيد وعيها، وعندها سأل مايس ببرود:

ـ ما الذي حدث لها؟

ـ أخبرتك بما كان يحدث حين جئتك إلى مطعم البحر . . لقد أنقذها بن قبل أن تسقط عن المنصة، ثم أغمي عليها . . على الأقل هي

سالمة الآن.. ولا فضل لك في ذلك.

انحنت أليدا تساعد تايثي على الجلوس، وقالت مارغريت:

ـ سنساعدها على النزول إلى الأسفل.. بإمكانها أن ترتاح بينما نقرر ما سنفعل.

وقفت الأميرة:

ـ لقد قررت ما هو الأفضل لابنتي.. استدعوا الإسعاف. يجب أن نعرضها على أفضل الأطباء، وربما على طبيب نفسي في تلك العيادة الخاصة في سويسرا..

وأكملت تهذر غير واعية أن لا أحد يستمع إليها.. فقد أوقفت أليدا ومارغريت تايثي على قدميها، وبدت مصابة بدوار، ولا تعرف أين هي.

قالت أليدا:

ـ استندي إليّ تايثي.

تمكنت أليدا بمساعدة مارغريت من إنزالها على الدرج المنحدر فيما كانت الأميرة تثرثر خلفهما دون اكتراث بها، وكان مايس يرافقها.. حين أوصلتا تايثي إلى أريكة في غرفة الاستقبال، استدارت مارغريت إلى أليدا قائلة بإشفاق:

ـ اذهبي الآن عزيزتي.. لقد عانيت من توتر شديد اليوم. وربما لديك مسائل خاصة تحتاجين لإنجازها.

ونظرت إلى مايس نظرة ذات مغزى.

قالت أليدا والتعب يطغى عليها: أجل.

لقد اكتفت من مشاكل الآخرين وعليها الآن أن تهتم بنفسها..

لكن الأميرة قالت:

ـ عليك أولاً أن تجدي كوكو.. لا يمكن السماح له بأن يبقى طليقاً.. قد يؤذي نفسه.

كوكو! أمام المأساة التي كادت تقع في الساعة الماضية، اختفى القرد من تفكير أليدا تماماً.. فكرت على مضض بالأضرار الفادحة التي يمكن للقرد أن يسببها لكنوز القصر التي لا تقدر بثمن.. فتخطت مايس مذعورة، وركضت إلى قاعة الرقص لتنظر إلى الثريات الضخمة.. لكنها لم تجد كوكو!

راحت تفتش في الأروقة، تنظر نحن الطاولات والمقاعد المذهبة.. توقفت لحظة في الردهة، ولاحظت أن باب المكتبة، الذي نادراً ما يكون مفتوحاً، موارب.

كان النور هناك خافتاً، ولم تستطع أن تجد الزر الكهربائي. نظرت في العتمة مدركة أنها لن تراه حتى لو كان موجوداً. سمعت صوتاً خفيفاً آتياً من الظل، فاستدارت بسرعة لتتأكد من مصدر الصوت الذي كان يطلق أنيناً كأنين طفل.

رأت بارتياح في النور الخفيف المنبعث من الباب، كوكو متكوراً يرتجف بين وسائد الأريكة المخملية الطويلة قرب المدفأة.

هلعت لتصرفه الجبان، ونادت: كوكو!

مد يديه نحوها وعلى وجهه تعبير بائس محروم.. كان مذعناً كالطفل، حتى أنها نسيت غضبها، فجلست إلى جانبه، وتركته يزحف إلى حجرها.. وسُرّت بعد تفحصه لكونه سالماً غير مصاب بأذى.. لا شك أنه خائف بسبب تركه وحده.

بما أن الأميرة كانت مشغولة بابنتها، لم تعرف أليدا ما هي الخطوة التالية.. وتعلق كوكو بها حين وقفت يلف ذراعيه حول عنقها.. ووقف كالب بالباب، وابتسم حين رأى كوكو يعانق أليدا.

ـ آنسة أليدا.. كنت أبحث عنك! وساورني قلق من أن يتسبب بالمزيد من الأضرار. على كل حال، سأحتفظ به في شقتنا إلى أن يعود إلى منزله.. لدينا صندوق كرتوني بإمكانه الارتياح فيه.

تحرك كالب بسرعة، وكوكو على كتفه.. أما أليدا فقد لمحت بن وهو يمر قرب الباب، فصاحت: بن!

استدار لسماع صوتها، لكنه بقي متحفظاً.. لم يكن في لقائهما ذلك الدفء الذي اعتادت أن تراه.. لا تواصل أو تفاهم بينهما. مع ذلك كانت مصممة على التحدث إليه لسببين: أولاً لكي تخبره عن اتصال جورج سايلور ورسالته الغامضة.. وثانياً لكي توضح له أنها ليست خطيبة مايس، ولن تكون.

- بن.. أريد أن أتحدث إليك.. أرجوك.. يمكن أن ندخل المكتبة.

تقدم نحوها دون أن يتكلم محاذراً أن تلتقي نظراتهما.. فتقدمته نحو المكتبة، ووقفت أمام المدفأة الكبيرة.. وقلبها يخفق بسرعة. كانت مضطربة بحيث التصق لسانها بسقف حلقها وأحست بتعرق يديها.

نجح بن في أن يجد زر الكهرباء الذي راوغ أليدا وبكبسة من إصبعه انبعث إلى الحياة المصباح الإسباني القديم الطراز، المعلق في السقف باعثاً النور، مما جعلها ترفرف عينيها. واستدار بن نحوها فجأة.

بدأت تقول:

- تلقيت مكالمة اليوم من جورج سايلور..

أشار بيده بقاطعها:

- لقد اتصل بي في العاصمة.. ونقل إليّ بعض الأخبار التي قد تسرك.

أجفلت: ما هي؟

سمعا حركة قرب الباب، فإذا بمايس يستند بغير اكتراث إلى الباب ينظر إليهما ببرود.

وردد سؤالها:

- صحيح بن.. ما هي؟

رد بن بلهجة منتصرة:

- أدخل مايس.. من الأفضل أن تسمع هذا أنت أيضاً.

بدأ الشك يبدو على وجه مايس، وقال بسرعة:

- ربما يجب أن نؤجل هذا النقاش إلى الغد.. ساعتها، أنت وأنا، يمكننا البحث بالأمور على حدة.

ونظر إلى أليدا، فقال بن بحزم:

- لا.. أريد الانتهاء من هذا الأمر.. الآن.

نظرت أليدا إلى بن بلهفة وقالت في سرّها وآمالها تتصاعد:

- لا شك أنها أخبار جيدة تتعلق بزانادو.. يجب أن تكون هكذا!

- مايس.. أنت تعلم أنني كنت اليوم في العاصمة للحديث مع الحاكم.. يبدو أن زانادو أعطي إرجاء مؤقتاً للحكم عليه.

صاح مايس وقد بدأ وجهه يشحب:

- ماذا.. ماذا تعني؟ سيباع زانادو إلى مؤسسة كاونت، كما هو مخطط!

قال بن ببرود:

- لا.. لن يحصل هذا. أعرف أن كاونت لا تستطيع الوفاء بالعقد.. كما عرفت اليوم أن ولاية فلوريدا تعتزم الحفاظ على زانادو وتحويله إلى متحف.. لذا عليك أن توقف مجيء البولدوزر.

نظر مايس إلى بن نظرة طويلة ملؤها الريبة. وبدا للحظات مضطرباً.. وواجه بن نظرته بثبات وهو يقول:

- لا أصدقك بن.. لقد لجأت إلى خداع قذر.. ولا يمكن أن يكون ما تقوله صحيحاً.

- بإمكانك التأكد بنفسك من دايفد تاكر في مؤسسة كاونت.. لقد

ألغيت الصفقة. لم يستطع جورج سايلور توقيع العقد في الوقت المناسب بسبب حادثة ثلاجة. حين اكتشف أنك وتاكر تحاولان الدفع بالعقد لتمريره، غضب وأقسم أنه لن يوقعه أبداً.

ـ أكد لي دايفد تاكر أن سايلور سيوقعه.

ـ مؤسسة كاونت تشتري أملاكاً في طول ساحل فلوريدا وعرضه لبناء مجمعات سياحية.. وهم متورطون في العديد من الاتفاقات الآن.. وظن تاكر أن سايلور سيوقع عقد زانادو دون سؤال.. وربما كان سيفعل.. لو لم أصل إليه أولاً.

لم يصدق مايس ما يسمع: أنت؟

رد بن بعناد:

ـ أجل مايس.. أنا.. لقد كان مستاءً جداً حين علم أن أحد الممتلكات التي ستشتريها شركته هي زانادو.. إنه كما تعلم مولع بالأنتيكات، ولن يشارك بإرادته في تدمير زانادو الشهير.. وتعرف هذا أيضاً.

بدأ وجه مايس يتجعد من شدة غضبه، وتمتم: لا أصدق!

بذل جهداً عظيماً ليستعيد رباطة جأشه، وانتصب ينظر إلى بن قائلاً بلوم:

ـ سأنتقم منك بن.. صدقني.. سأنتقم منك.

هز بن كتفيه:

ـ لا يهمني ماذا ستفعل مايس طالما أن زانادو أصبح بأمان الآن.

تجاهل مايس بن، وتابع:

ـ كان يجب أن أعرف.. لقد أبلغتك جاسوستك الصغيرة بخبر حادثة سايلور.

اختنق صوت أليدا في حلقها:

ـ هذا غير صحيح!

التفت مايس إليها:

ـ هل جزاء من أدخلك منزله وأمن لك العمل أن تسترقي السمع إلى محادثاته لتكسبي معلومات تستخدمينها ضده؟ كم يدفع لك؟

لم تستطع أليدا تحمل ازدراء مايس المهين:

ـ إنه لا يدفع لي شيئاً.. فأنا..

قال بهمس بكراهية:

ـ أوه.. إذن أنت تفعلين هذا مجاناً!

تدخل بن قائلاً:

ـ لا شأن لأليدا بهذا، دعها جانباً.

نقلت أليدا عينيها إلى وجه بن.. وأحست أنها في دوامة متسارعة.. وما ألمها أكثر اقتناعها أنها مهما حاولت إبعاد نفسها عن الموقف، سيساء فهم كل ما تقول.. فوقفت صامتة، تحدق إلى بن برجاء وأمل أن ينجدها.

قال بن:

ـ وماذا عن عرضك للزواج بها مايس؟ منذ برهة وجيزة كنت تقول إنكما مخطوبان.

رفع شفته إلى الأعلى مكشراً بسخرية:

ـ خطوبة..؟ زواج؟ لا تكن مجنوناً! لماذا أريد أن أتزوجها في وقت أحصل فيه على أي فتاة أريد؟ فتاة معها مال ولديها مركز اجتماعي.

تراجعت أليدا إلى الوراء وبدها على عنقها المرتجف كعصفور مذبوح.. وقالت:

ـ لقد طلبتني للزواج.. لكنني لم أوافق أبداً.

نظر بن إليها ثم إلى مايس، وسأل:

ـ هل هذا صحيح مايس؟

- إنه صحيح . كانت أليدا أحد الأسلحة الكثيرة التي أردت أن أحاربك بها . . وفعلت . . وضعت خطتي بإحكام، غازلتها، وأبديت اهتمامي بها أملاً أن أكسبها إلى جانبي . . ولم يكن هناك شك عندي أنها كانت جاسوسة لك . . ولو أنني تعاملت معها بشكل جيد، لأصبحت جاسوسة مزدوجة ممتازة . . لكنني كنت على خطأ.

تقدم مايس إليها . . فأحست بقشعريرة ذعر وهو يمد يده إليها، وأجفلت حين لامست أصابعه الباردة خدها:

- أنت جميلة جداً عزيزتي . . في الواقع كدت أقع في حبك.

صاحت أليدا، تحس أنها لن تتحمل المزيد: لا تلمسني!

أوقد استغلالها من قبل مايس أفكارها وأشعل غضبها، ولم يكن غضبها من بن أقل من غضبها من مايس.

لقد سئمت الخجل من المجتمع الراقي . . سئمت النفاق والخداع . . سئمت أن تعلق دائماً وسط موقف لا تريده ولا تفهمه. فتخلصت مبتعدة عن الأخوين، ووقفت قرب المدفأة الكبيرة تواجههما معاً . . لتقول بغضب:

- لقد اكتفيت! جئت إلى هنا لأجل العمل فقط . . فأصبحت متورطة ضمن عائلة غريبة الأطوار، ونزاع سخيف بين أخوين يصران على استغلالي كمخلب في لعبة السلطة! حسن جداً . . لست مضطرة لتحمل هذا، ولن أتحمله! سأرحل . . إذا كنتما ستستمران في ألعابكما الصبيانية السخيفة، فافعلا هذا دوني . . سأترك زانادو غداً!

تجاهلت وجهيهما المصدومين، وعصفت خارجة من الغرفة، تصفق الباب وراءها . . واتجهت إلى غرفتها متوقفة أحياناً لتمسح دموع الغضب عن عينيها.

كان ليلها طويلاً، وقد جفا النوم عينيها إلى وقت متأخر، كانت تغفو وتصحو بالتناوب لتعود إلى أفكارها المؤرقة.

حين هربت من المكتبة، توقعت أن يلحق بن بها ليحتج على تركها زانادو، لكنه لم يفعل . . وبالرغم من أنها كانت المبادرة في إنهاء علاقتهما، إلا أن فكرة الهجران ظلت تشغل بالها.

لقد جاء بن ببُعد جديد إلى حياتها، أيقظ بداخلها أحاسيس عميقة تعد بالتطور إلى علاقة أكثر عمقاً من أي علاقة عرفتها من قبل . . كانت تخشى أن تكون قد أساءت قراءة الوعد في عينيه . . أو أن يكون الانجذاب الذي أحست به غير مشترك . . ومع انحسار الليل، وفقدانها الأمل في أن يتصل بن بها، أدركت على مضض أن حلمها بمستقبل يجمع بينهما قد أصبح سراباً.

في الصباح التالي، زارت مارغريت وكالب في شقتهما الصغيرة، وأخبرتهما عزمها على مغادرة زانادو . . وهذا ما أشعرهما بالدهشة والانزعاج، ثم أشار كالب إلى غرفة مخزن صغيرة . . حيث بدت في الزاوية لفافة من الورق الأسمر.

جذب كالب اللفافة: انظري.

صاحت أليدا باستغراب:

- إنها سمكة السليفيش التي اصطدتها!

كان قد أعيد جمع السمكة وحشوها وتحنيطها لتبدو كما كانت وهي حية، زرقاء فضية لامعة بزعنفة مرفوعة وفم حاد كالرمح.

- لقد وصلت هذا الصباح . . وبالطبع سترغبين في شحنها إلى شيكاغو . .

أعطته عنوان شقتها، وأكد لها أنه سيهتم بأمر شحنها بنفسه . . وحثها على الانضمام إليهما لتناول فنجان شاي، فقبلت دعوته بامتنان.

قالت مارغريت وهي تلاحظ الدوائر الحمراء تحت عينيها:

- أتمنى ألاّ ترحلي.

- أشعر أن عليّ الرحيل . . بإمكانهما تكليف شخص غيري لإكمال

عملية التقييم.. أظن أنني ما عدت قادرة على تحمل تصرفاتهما أكثر.

تبادل كالب ومارغريت النظرات المتفهمة، وقال كالب:

- أعتقد أنك تدركين ما يجب فعله.. وسأكون سعيداً بأن أوصلك إلى المطار حين تصبحين جاهزة.

قالت:

- كنت محظوظة بما يكفي للحصول على حجز على طائرة تغادر هذا المساء.

قال:

- سأرتب مواعيد عملي لأكون حراً وأقلك إلى المطار.

- هناك شيء واحد أود معرفته قبل أن أرحل.. هل سمعت شيئاً عن حالة تايثي، مارغريت؟

- اتصلت بمنزلها هذا الصباح.

هزت رأسها ثم أكملت:

- قالت لي مديرة منزلهما إن الأطباء يبقونها مخدرة. لا شك أنها مريضة جداً.

هزت أليدا رأسها موافقة على ذلك، متذكرة عيني تايثي الواسعتين ليلة أمس عندما كانت تقف فوق المنصة المهزوزة.

- لقد تحدثت أمها عن مساعدتها.. وأرجو أن تفعل.

قالت مارغريت:

- فهمت أن هناك خطة لمعالجتها في سويسرا.

- أتساءل ما الذي دفعها إلى هذا.. أن تتسلق إلى البرج وتعرض نفسها للخطر.

ابتسمت مارغريت بحزن:

- لقد كانت تبدو دائماً تعيسة، حتى وهي طفلة صغيرة.. ولفترة طويلة، حاولت ما تستطيعه لتدفع أمها إلى الاهتمام بها.. إلى أن فجر

هروب كوكو وحصوله على الاهتمام كله إحساساً دفعها لتقوم بعمل يجعل الأميرة أكثر اهتماماً بها.

تمتمت أليدا لنفسها:

- إنها معجبة ببن.

نظرت مارغريت إليها بحدة:

- إذن أخبرك شيئاً عن طفولته؟ هذا جيد.. اعلمي أنهما متشابهان في كثير من الأوجه، وكلاهما كان متخماً بكل شيء يريده عدا الاهتمام.. الفارق الوحيد بينهما هو أن السيد بن قوي الشخصية.. وتمكن من تسوية أموره وهو يكبر.. أما الآنسة تايثي فلم تتعود هذا أبداً.

احتست أليدا الشاي مفكرة:

- على الأقل، تمكنا من إنقاذ تايثي من الخطر الذي عرّضت نفسها له، ولست أدري ماذا كنا فعلنا لولا مجيء بن.

- لطالما حاول السيد بن مساعدة الآنسة تايثي.. فهو يعرف مشاكلها.. حتى أنه كان يوفر لها الملجأ أحياناً حين لا تتمكن من العودة إلى منزلها.

تذكرت أليدا ثوب النوم الحريري الذي أعطاها بن إياه بعد إنقاذها من التيار البحري.. وأحست باحمرار خديها. رأت مارغريت تعابير وجهها، فمالت إليها مقطبة:

- لا تطلقي لمخيلتك العنان في تصور أي علاقة بينهما، هذا غير صحيح، آنسة أليدا.. فبالرغم من رغبة الآنسة تايثي الظاهرة بالسيد بن مؤخراً، إلاّ أنه لا يأخذ إعلانها عن حبه على محمل الجد.. وأستطيع أن أؤكد لك أنهما مجرد صديقين.

ووضعت يداً مطمئنة على ذراع أليدا.

وقف كالب معتذراً، يقول لها:

- اتصلي بي حين تجهزين للرحيل.. سأصعد إلى غرفتك لأساعدك في حمل متاعك.

نظرت مارغريت بعد ذهاب زوجها إلى أليدا هامسة:

- يبدو أنك لم تنجحي في تسوية الأمور مع السيد بن.

- لقد انقلبت الأمور بيننا رأساً على عقب.. لهذا عزمت على الرحيل.

- والسيد مايس؟

- أتمنى لو أنني لم أقابله يوماً.

- ربما حين تصلين إلى ديارك في شيكاغو، ستتمكنين من وضع الأمور في نصابها الصحيح. أنا أعرفه جيداً.. ولا أصدق أنه سيتركك تفلتين من يده.

لكن أليدا لم تكن واثقة مثلها، فابتسمت بجفاء:

- لا مارغريت.. لقد انتهى الأمر بيننا.. على أي حال، يجب أن أركز جهدي على إيجاد عمل خلال الأسابيع القليلة القادمة. العودة إلى الحياة الطبيعية ستساعدني على إبعاد تفكيري عما حدث هنا. والأمر الوحيد الذي سأذكره بارتياح هو إنقاذ زانادو.

تهلل وجه مارغريت:

- أوه.. أليس هذا رائعاً؟ كنت سأكره مغادرة المكان أو أن أرى هذا المنزل يُدمر.

- وهل ستبقيان أنت وكالب هنا؟

هزت رأسها:

- سيحتاجان إلينا للعناية بزانادو.. وهذا أمر يجعلنا أكثر سعادة.

بعد وداع عاطفي، تركت أليدا مارغريت، وعادت إلى المنزل تسير على غير هدى، تودع بصمت كل الأشياء الجميلة التي أحبتها.. في قاعة الرقص الكبيرة، لاحظت قطع الكريستال الناقصة من الثريات،

والتي رماها كوكو، وأملت أن يتذكر أحد أن يطلب بديلاً لها.. ودخلت المكتبة لتلقي نظرة أخيرة على مسرح شهد نهاية مؤلمة لليلة أمس.. ثم أقفلت الباب بهدوء.. وكأنها تغلق فصلاً من فصول حياتها.

وابتسمت لنفسها وهي تصعد السلم الحجري المقوس الكبير. إنها تتذكر أول يوم لها في زانادو.. يوم لحقت بين مضطرة وتبعته على هذا السلم في بنطلونها الجينز الواسع والكنزة الفضفاضة.. كان هذا منذ وقت قصير جداً.. مع ذلك.. بدا طويلاً بالنسبة إليها.

دخلت غرفتها وفتحت أبواب الخزانة الكبيرة واستعادت حقيبتها من رف مرتفع.. وأخذت تطوي بحذر كل قطعة ثياب وتضعها بعناية في الحقيبة.. حين وصلت إلى الساري الأرجواني والفضي، ترددت.. أمسكت الطيات الناعمة للقماش على خدها لحظة، متذكرة الحفلة الراقصة.. هل تريد أن تأخذ معها هذه الذكرى لذلك المساء المليء بالأحداث؟ أم أن من الأفضل تركه خلفها لتوفر على نفسها بعض العذاب الذي لا شك ستشعر به كلما شاهدته؟ ثم تذكرت وقوفها على الشاطىء، والريح تلاعب شعرها وهي تقف في ضوء القمر ليرسمها بن.. لا.. ليست ذكريات تلك الليلة جميعها سيئة.. بل هناك أحداث سعيدة تتذكرها. هكذا طوت الساري ببطء، تمرر أصابعها فوق طيانه الرقيقة قبل أن تضعه في الحقيبة.

حين أنهت توضيب ثيابها، ظهرت مارغريت ومعها صينية الغداء، فجذبت أليدا الطاولة المستديرة الصغيرة إلى النافذة حيث تستطيع النظر إلى المحيط المفتوح.. ركزت الستائر الحريرية إلى جانب واحد، وفتحت النافذة، تتنشق الهواء المالح إلى أعماق رئتيها.. أجل ستشتاق للشاطىء أكثر من شوقها لزانادو.

اغتنمت الوقت المتوفر لديها بعد غدائها المتأخر، لتتصل للمرة

الأخيرة على الشاطىء قبل أن ترتدي ثيابها، وتلحق بموعد الطائرة.. ارتدت فستاناً قطنياً بسيطاً احتضن جسدها بخفة..

سارت عبر بستان البرتقال، لم تستطع منع نظرها من التسلل إلى الكابينة.. إنها هادئة الآن، وتشك أن يكون بن بداخلها.. وهذا أمر جيد إذ ليس لديها الرغبة في مقابلته قبل أن ترحل.. ويكفيها ما نالته من إساءة ليلة أمس.

سارت على الشاطىء، بعيداً عن الكابينة. أعجبتها مجموعات الصدف عند خط الماء، فراحت بين الفينة والأخرى تنحني لتلتقط واحدة تضعها في جيبها.. حتى جمعت تشكيلة جميلة متعددة الألوان والأشكال.. وقدرت أنها ستكون زينة حلوة لرف الكتب في شقتها.. ولم تعترف لنفسها أن الأصداف المعروضة على رف مدفأة كابينة بن، هي التي أعطتها هذه الفكرة.

مرّ الوقت بسرعة، وظللت عينيها من وهج الشمس وهي ترفع بصرها محاولة الحكم كم مضى عليها من وقت منذ تركت غرفتها.

قدّرت أن الساعة حوالى الخامسة.. واستغرقت دون وعي منها في تأمل أبراج زانادو التي كانت تلمع ذهبية تحت أشعة شمس ما بعد الظهر.. وأحست بالرضى لأنه لن تحل مكانها أبراج من زجاج وأسمنت. وربما ستتمكن يوماً من العودة إلى بالم بيتش، وأن تزور زانادو كسائحة، بعد أن يصبح متحفاً.

كانت مستغرقة في أحلام يقظتها حتى أنها لم تلحظ الطيف الطويل السائر إثرها في ثوب السباحة، كان يسير بثبات، وبداء في جيبي سترة مانعة للريح، وخصلة شعره التي لفتحها الشمس تتدلى على جبينه.. لما وصل إليها توقف ليشاركها الإعجاب بالأبراج المرتفعة.

قال بنعومة قرب أذنها:

ـ إنها جميلة.. أليس كذلك؟

التفتت إلى الخلف مجفلة، لتجد بن يقف أمامها. قالت بعد برهة:

ـ أجل.. كنت ألقي نظرة أخيرة على الأبراج لأختزنها في ذاكرتي إلى الأبد.

قال بصوت حاد:

ـ أنت إذن راحلة حقاً؟

ـ هذا المساء.. لقد جمعت بعض الأصداف لأزين بها شقتي، وكان يجب أن أقف بإعجاب أمام زانادو.. أنا مرتاحة جداً لتمكنك من إنقاذه بن.

التقطت عيناه عينيها وأسرتاهما: حقاً؟

تجنبت عينيه:

ـ بالطبع.. لكن كيف فعلت هذا؟

ـ ضربة حظ.. حين التقيت بتشارلز والترابت وأنا أفتش عنك ليلة الحفلة، أبدى انزعاجه لأن زانادو سيهدم.. إنه يهوى جمع التحف كما تعرفين، وقد كان ضيفاً دائماً في زانادوا في السنوات الأخيرة.. ذكرت له أن مؤسسة كاوتت هي التي ستشتريه فثار سخطه وقال إن هذا غير صحيح.. بسؤاله، عرفت أن جورج سايلور صديق مقرب له وأنهما يتشاركان الاهتمام بالفن والأثريات.. فلم يكلفه الأمر سوى اتصال هاتفي بسايلور في المستشفى حتى وضعني على اتصال بسايلور على الفور.

ابتسم بن حتى تجعدت عيناه عند الزوايا:

ـ ما إن عرف سايلور القصة كاملة حتى أوقف عملية امتلاك المؤسسة لزانادو.

ـ وكيف توصلت إلى تحديد موعد لمقابلة الحاكم؟

ـ هذا أمر سهل.. لقد رتبه لي جورج سايلور، بعد لقائي بالحاكم

سويت كل الأمور.. كنا قد تقدمنا لمنحة فدرالية منذ زمن بعيد.. ولقد وصل الرد في الوقت المناسب.. وأعتقد أن الحظ كان معنا.

استدارت أليدا نحو بن وحاولت منع صوتها من الارتجاف:

ـ أنا سعيدة جداً لأجلك.. أين ستذهب الآن؟ هل مطلوب منك أن تغادر الكابينة؟

ـ سأبقى هنا على الأرجح لعدة أشهر.. حين يتحول زانادو إلى متحف، سيكون لدي خيار البقاء في الكابينة.. لكنني قد انتقل إلى شقة صغيرة في «وارث آفينيو».. ربما سأحتاج إلى التعود على التغيير في المنظر.

ردت أليدا تفكر بلوحاته: أوه..

كيف يستطيع أن يرسم إذا لم يكن يقيم قرب مصدر إلهامه.. البحر؟

قال وكأنه يرد على هذا السؤال الذي لم تطرحه:

ـ هذا لن يعني بالنسبة إليّ الكف عن رسم صديقي البحر.. على أي حال، الآن وأنا حرّ أكثر، قد أرغب في عمل من نوع آخر.. وكما تعرفين، كنت قد بدأت برسم صورة أريد أن أنهيها، صورة لسيدة جميلة.

أحست بالارتباك تحت نظرته الحادة، وتمنت ألاّ يحوّل الحديث نحوها.. وأن يبقيه بعيداً عن الأمور الشخصية، ويتركها تعود إلى ديارها مع شيء من السلام والاتزان.. لا تريد أن تبقى تتذكر آخر لحظات لهما معاً.. هذه ذكريات تريد أن تستبقيها بعيدة، كي تحتضنها قريباً منها خلال ليالي الشتاء الطويلة التي تنتظرها وحيدة.

حين لم ترد، تابع بن بصوت منخفض:

ـ تذكرين أنني قلت لك أن ليس لدي موهبة لرسم الصور الشخصية؟ حسناً.. أظنني كنت مخطئاً. صورتك أليدا حقيقية..

وأعتقد أنني تغلبت على السد النفسي الذي كان يتملكني عندما أحاول رسم صور الناس، وهذا بسببك.

قالت، صوتها لا يزيد عن الهمس:

ـ قلت إنك لا تستطيع الوصول إلى قلوب الناس.

مد يده إليها:

ـ لقد أريتني قلبك.

جذبت نفسها منه.. قالت وهي تهمُّ بالسير نحو زانادو:

ـ حقاً بن.. يجب أن أذهب الآن، لا أريد أن أتأخر عن موعد الطائرة.

تقدم يسير معها:

ـ أعتقد أنك يجب أن تعرفي أنني حسمت أمري مع مايس. وكم كنت أتمنى لو أنني استطعت تخفيف وطأة ما جرى بالأمس بالنسبة إليك. لكن بدا لي ساعتها أن لا شيء أقوله سيقنعه أنك لست جاسوسة لي. غير أنني حين ذهبت لأقابله بعد ذلك، شرحت له الأمر على حقيقته، وكان متفهماً. إنه يشعر بالمرارة طبعاً كما كنت سأشعر بها لو كنت مكانه.

ـ هكذا إذن.. وهل سامحك على وقوفك ضد بيع زانادو؟

ـ أشك في هذا. قال إنه سيترك بالم بيتش ليعيش في نيويورك.. هناك، سيكون أقرب لأعماله ومصالحه والحياة الاجتماعية التي اعتاد عليها.. وربما مع الوقت..

صمت قليلاً ثم عاود الكلام:

ـ أليدا.. ليلة أمس في البرج انزعجت مما حدث لتايثي. وكنت أحس بالإرهاق والضغط من جراء السعي إلى إنقاذ زانادو و.. أعرف أن هذا ليس عذراً كافياً لكن أرجوك سامحيني لتصديقي مايس حين قال إنك ستتزوجين به.. أيمكن أن تسامحيني؟

دارت أفكارها في دوامة. ليلة أمس أحست أن بن خذلها، وهي الآن ليست متأكدة إن كانت قادرة على المسامحة أم لا.

- بن.. كيف يمكنك التفكير أنني أوافق على الزواج به وأنت تعلم ما يعنيه أحدنا بالنسبة إلى الآخر؟

حدق إلى عينيها والبؤس بادٍ في عينيه وقال:

- لست أدري.. صدمت بشدة حين قال إنك خطيبته لدرجة توقف معها ذهني عن التفكير.. خطر ببالي أنك مثل كل الأخريات، خدعك مايس بماله ومركزه الاجتماعي.

أشاحت أليدا نظرها عنه وتابعت سيرها، لا تريد أن تتكلم عن الموضوع أكثر.. إضافة إلى أن الوقت حان لترتدي ملابسها قبل السفر.

أمسك بن ذراعها بقوة، وأدارها لتواجهه:

- لا أستطيع السماح لك بالذهاب هكذا وأنا أعرف أنك غاضبة مني! بيننا شيء.. سمّه تفاهماً.. سمّه ما أردت.. شيء يمكنه أن ينمو ويزهر. أنت المرأة الوحيدة التي أحسست بالارتياح إليها.. الأولى التي اهتممت بها حقاً، قولي إنك لست غاضبة مني.

كان في عينيه شوق.. يخفي وراءه شيئاً أعمق.. عيناه كانتا تحرقان عينيها، وأحست بحرارة يده تلسع ذراعها.

- أوه.. بن.. لقد تأخرت كثيراً عن البوح بهذه المشاعر، كان بالإمكان أن يجمعنا شيء مُشترك ربما.. لكن، الآن، أمور عديدة أفسدت العلاقة بيننا.

اقترب منها أكثر.. وأمسك ذراعها الأخرى:

- لا داعي لأن تفرق هذه الأمور بيننا، يكفي أن تأخذي قراراً بتجاوزها.. يجب ألا ندع أخي يفرقنا.

نظر إليها بعينيه الزرقاوين المشتعلتين، ودونما إرادة منها، ضمت

نفسها إليه.. من بعيد، كانت تسمع الأمواج تتقلب وترتفع ثم تتكسر، ثم تتجمع وتتكسر.. وبدا لها أن الصوت يتناغم مع الإيقاع المتسارع لنبضات قلبها.. تركت نفسها تنجرف إليه، وارتفعت ذراعاها تلتفان حوله.. كانت تقف على أطراف أصابع قدميها فوق الرمال.. تتركه يضمها بشدة.. وفي أعماق أعماقها شعرت بنار، تومض قليلاً قبل أن تغمرها في لهيبها.. آمنت أنها لن تملّ يوماً من هذا الرجل، حتى ولو عاشت معه مئة سنة، ألف سنة.

دفن وجهه في شعرها الحريري الأسود، وقال بصوت أجش:

- لن تذهبي إلى تلك الطائرة.

سحب رأسه إلى الوراء، ورأت نفسها منعكسة في عينيه:

- لن أذهب؟ ولماذا لن أذهب؟

- لأنني أحبك أليدا برايس، ولسوف نتزوج.

ضحكت بارتجاف:

- ما الذي يجعلك مقتنعاً بذلك؟

ضحك:

- أوه.. لدي صورة يجب أن أنهي رسمها.. ويبدو لي أن هذه هي الطريقة الفضلى لإجبارك على البقاء هنا والجلوس أمامي. لست أنوي أن ألحق بك إلى شيكاغو كي أنهي رسمها.. فأنا لم أحب يوماً شتاء الشمال البارد الطويل.

قبل طرف أنفها.

رفعت نفسها تقبل أنفه بدورها.

- لا يجب أن نبقى هنا نتعانق أمام أنظار الجميع.

رفع بن رأسه ونظر إلى الشاطىء:

- هذه المرة لا أرى البجع المائي، ولا النورس، ولا أية طيور أخرى.

لفتت نظريهما حركة خفيفة على الرمال.. وأطل سرطان رمال فضولي من جحره، وتقدم نحوهما. فضحك بن..

- بما أن لدينا رقيباً من نوع ما.. فمن الأفضل أن نذهب إلى مكان آخر.

أشارت إلى الأعلى: انظر..

كانت الشمس الغاربة فوق رأسيهما تلامس بنارها رؤوس الأبراج، وهبط سرب من النورس عبر بستان البرتقال، وغطى هدير البحر على أصواته حتى كادت لا تسمع.

قال بن دون مقدمات:

- هكذا سأرسم زانادو.. تماماً هكذا.. مع مغيب الشمس.

استدارت أليدا إليه وسؤال في عينيها:

- وهل قررت رسم زانادو؟ ظننتك لا تريد هذا.

- كان هذا من قبل.. وأظنني حاضراً الآن. ولسوف أبدأ رسمه حال إنهاء صورتك.. ربما أنهي رسمه في الوقت المناسب لأهديك الصورة كهدية زفاف.

- أوه.. بن.

ولم تستطع قول المزيد، فقد غاصت الآهات في قلبها.

استندت إليه لحظات، رأسها على تجويف كتفه، بينما كان الموج يردد صدى كلمات الحب التي كانت تتمتمها في قلبها.. ثم دست ذراعيها حول خصره.. وكيفت خطواتها مع خطواته.. ليسيرا ببطء فوق رمال زانادو.

* * *